٣

نشأة الوفاء النهائى

١٨٩٨ — ١٩٠٧

أخذ مركز ألمانيا كما أسلفنا القول في الفصل السابق يتحسن منذ سنة ١٨٩٥ تقريباً تحسناً عظيما إذ جعلت الروسيا من تلك اللحظة تدير ظهرها لاوربا وتتطلع الى بسط سلطانها على شرق آسيا . والى هذا الظرف السعيد يرجع السبب حتى فيما أحرزته المانيا على أثر ذلك إذ ضمنت لنفسها مرفأ في الصين بفضل ذلك التفاهم مع الدولة السلافية العظمى . فقد ظهرت في ربيع سنة ١٨٩٥ فكرة الحصول على كياوتشاو أول ما ظهرت وكان اختيار هذا المكان راجعاً الى بعده عن منطقة النفوذ الانجليزية البعد الكافي لان يبعد عن ذهن بريطانيا العظمى أن المانيا تنازعها مكانها . وابتدأت المفاوضات في أوائل العام التالى مع حكومة الصين دون أن تفضى الى نتيجة . وجدير هنا بالملاحظة قول سفير الصين في بطرسبورغ لسفير المانيا هنالك البرنس فون رادولين : «انه بدون استخدام شيء من القوة يصعب حل مسألة التنازل» . كذلك زميله في برلين قد نصح باتباع هذا المسلك الحازم . بل ان وزير الروسيا المفوض في بكين الكونت كاسنين أبدى للبرنس رادولين كما ورد فى تقرير لهذا الاخير : « ان التلطف فى ابداء المطالب أمر طيب فى أوربا لكن الصين ليست محله ولن تفهمه . وفي الصين متسع للجميع : لنا ولفرنسا ولالمانيا • فغريب ان تقنع المانيا بهذه المطالب القليلة بعد تلك الخدمات الهائلة التى أدتها للصينيين» . ومع ذلك فان برلين ظلت على الرغم من هذا التشجيع تسير بخطى حذرة جداً حتى صيف ١٨٩٧ إذ حصل الامبراطور غليوم الثاني على موافقة الروسيا وعلى تأكيد من القيصر بالمساعدة في هذا الباب. وهكذا خطت برلين الى العمل فتذرعت فى خريف تلك السنة بمقتل بعض المرسلين الكاثوليك الالمان في شانتونج وسارت سيراً حازما فدخلت السفن الالمانية ميناء كياتشاو وانتهت المفاوضات التى دارت بعقد اتفاقية ايجار مع الصين ضمنت لالمانيا المكان الذي كانت تطلبه .

أما الظرف السعيد الثاني الذي ضمن لالمانيا فى تلك السنوات تطوراً هادئاً فقد كان ذلك التنازع المتزايد بين الدول العظمى على المستعمرات ، وذلك التصادم بين الروسيا وانجلترة في آسيا وفرنسا وانجلترة في أفريقيا تصادماً تحدوه الرغبة الاستعمارية في فتوحات عظيمة فى بلاد الغير . فقد حمل هذا الامر الواقع برلين على التزام خطة رمت الى الابتعاد بالمانيا عن دائرة هذه المنازعات لتظل مستمتعة بحريتها فكانت برلين في ذلك تطلب مثل العزلة التى ظلت انجلترا تحت حكم سالسبوري مستمسكة بها صيانة لمصالحها. وقد سارت المانيا على هذه الخطة منذ تولى برنارد فون بيلوف وزارة خارجيتها ، وقد شغل بعد ذلك منصب المستشار الامبراطوري فيها .

ولقد أرسل بيلوف فى ٨ يناير سنة ١٨٩٨ الى السفير الالمانى فى لندن بمناسبة كياوتشاو تعليمات جاء فيها : « أن الروسيا على وشك أن تضع يدها على ثلاث مناطق صينية لاسبيل الى نعتها بانها أقاليم لاتساع مساحتها اتساعا هائلا . والمنتظر أن تحدث هذه النيات هياجا شديداً في انكلترا . على أن الحكومة الالمانية قد وفقت الى تحقيق طلباتها المتواضعة فى كياوتشاو دون أن ترتبط باعانة الروسيا على تحقيق برنامجه في آسيا ». الى أن قال:

« والصداقة التى تربط جلالة الامبراطور بالقيصر وتجعل للاخير حقاً أدبياً في تأييد المانيا تخول مولانا الاعظم حقاً في أن يستمع له ويحترم رأيه فى كل الحالات التى تتطلب مساعدة المانيا في تحقيق أغراض روسية . فاذا أهملت المشورة الالمانية ولم يعمل بها فان الامبراطور يستعيد كامل حريته في أن يقرر ماتستلزمه إذ ذاك مصالح المانيا . وتاريخ ثمانية عشر العام الاخيرة يقدم لنا مثالا للنتائج الطيبة التى أسفرت عنها حالة مشابهة بين المانيا والنمسا فان المحالفة التى عقدت أولا فى سنة ١٨٧٩ بين الدولتين لم تكن تتناول مشاكل البلقان ولم تكن النمسا تستطيع أن تعتمد على هذه المحالفة اذا هي اتبعت فى شؤون البلقان سياسة استفزاز وهذا هو السبب الذى من أجله كنا نسمع

اللوم يوجه على مر السنين بأن المحالفة الثلاثية لم تفد النمساشيئاً لانها لاتتناول البلقان حيث النمسا لاتتعرض للاذى الامن ناحيته . وهـذه الحالة التى قيل بعيبها هى التى ترجم اليها أوروبا الفضل فيما سادها من سـلام تلك السنين الطويلة . ذلك ان المعاهدة الالمانية النمسوية على مافيها من ثلمات سـدت الصداقة بين الامبراطورين فراغها كان من شأنها أن تجعل آراء المانيا الملطفة مسموعة لدى الامبراطور فرنسوا جوزيف وحكومته . ولو أن الامر لم يكن كذلك وكان الاتفاق النمسوي الالماني يربط المانيا ربطا محكما بكل مافي ذلك من مصالح النمسا فى البلقان وسياسة النمسا في هذه البلاد ، لما استطاع وزير نمسوي بل لما استطاع الامبراطور فرنسوا جوزيف محب السـلام أن يقاوم الرغبة في دفع المانيـا وراء الاغراض النمسوية ولـكانت الحرب من أجل بيزانطه قد خيض غمارها من زمان وأصبحت خريطة أوروبا بل خريطة العالم غيرها حينذا لك.

« وان الذى ضمن للعالم السلام لم يكن معاهدة بل استقلال المانيا في العمل ونصيحتها التى تبديها . فلنأمل أن يظل هـذا العاملان فى الشرق الاقصى عنصرين لنشر السلام في العالم . »

واليك ماأراد بيلوف أن يعلمه الانجليز : « نحن الالمان تربطنا بالروسيين علاقات حسنة وليس من شأننا التعرض لخطط توسعهم الذي لاترحب به بريطانيا العظمى . فنحن بعيدون عن خطط التوسع هذه لنستطيع حيثما أمكن أن ننصح بالاعتدال . فقوتنا ينبغي فى مصلحة القوى المتضاربة كلها أن تكون في استقلالنا التام عن كل فريق »

فالوثيقة التى أوردناها هنا تدل على جانب من البرنامج الذي وضع فى ذلك الحين لسياسة المانيا . فالابتعاد فى حذر عن خلافات الغير كان الوسيلة التى أريد بها المحافظة على حسن العلاقات مع الجميع والانتفاع من ذلك حيثما تدعو مناسبته . لـكنه كان يراد قبل كل شيء أن يتحقق من وراء ذلك أهم غرض وهو

المحافظة على سلام أوروبا الوسطى ، لانه مادام المرء بعيداً عن منازعات الجيران فهو خليق أن لايتورط فيها ، وان يتحاشى كل خطر للحرب. وقد ظل الالمان في السنوات التي تلت منطقيين فى التزام هذه الخطة مناهضين كل الغراء يطلبهم من مختلف الجوانب لاخراج امبراطورية وسط أوروبا من عزلتها .

وقد كان أول اغراء من ناحية انجلترا وفي ربيع سنة ١٨٩٨ إذ كتب السفير الالماني فى لندن الكونت فون هتسفلد في ٢٩ مارس تقريراً عن حديث سرى جداً جرى له مع تشمبرلن وزير مستعمرات انجلترا صرح له فيه هذا الاخير بأن : « الحالة السياسية قد اتخذت الآن اتجاهاً جديداً لا يسمح لانجلترا بأن تظل محافظة طويلا على سياستها التقليدية التى سارت عليها إلى الآن ويعنى بها سياسية العزلة . فالحكومة الانجليزية مضطرة الى أن تتخذ قريبا قرارات على جانب من الاهمية . وهي تضمن اليوم تأييد الرأى العام إذا هي عدلت عن سياسة العزلة وخرجت تطلب المحالفات التى قد تسهل عليها أيضاً ما طالما تمنته من المحافظة على السلام » .

وقد اشار تشمبرلن فى هذه المناسبة الى المنازعات الشديدة التى كانت قائمة في ذلك الحين بين انجلترا والروسيا فى الصين والى الخصومة القائمة بين انجلترا وفرنسا فى غرب افريقيا وكان من رأيه بعد أن انتقل الى الكلام عن العلاقات بين بريطانيا العظمى والمانيا ان لكلا البلدين مصلحة سياسية واحدة ، وان ماهنالك من خلافات صغيرة على المستعمرات يمكن أن يسوى اذا أمكن الوصول في الوقت ذاته الى تفاهم على المصالح السياسية الكبرى . ثم جرى الحديث بتشمبرلن الى موضوع انضمام انجلترة الى المحالفة السياسية . والحديث ممتع جداً من نواح كثيرة فهو يدلنا أولا على ان تطوراً كان يجرى في انجلترا يناقض ما أسلفنا وصفه من تطور المانيا على خط مستقيم ، فان دوائر معينها في الجزر البريطانية كانت تحس الحاجة ماسة الى العدول عن موقف

العزلة الذى اتخذته البلاد بمحض ارادتها ، والى البحث عن فريق من فرق القارة يستند اليه . وفكرة كهذه كان منشأها الرغبة في المنفعة الذاتية . والجدير بالملاحظة ان وزير الخارجية الانجليزية لم يكن هو المتقدم باقتراح الانضمام الى المحالفة الثلاثية بل وزير المستعمرات الذى رأيناه يلعب دوراً مستقلا تقريباً في الخلاف الذي قام بين فرنسا وانجلترا من أجل مصر . ووزير المستعمرات هو الوزير الذى تقض مضجعه بصفة خاصة متاعب امبراطوريته فيما وراء البحار . فالذى كان يسعى اليه هو بلا ريب تقوية مركز بريطانيا العظمى بازاء الدولتين اللتين تناظراها مناظرة محسوسة في ميدان الاستعمار وهما الروسيا وفرنسا ، فاذا انضمت انجلترا الى المحالفة الثلاثية أمكنها بانبساط سلطانها فى القارة الاوربية أن تضغط على منافستيها ضغطا محسوساً جدا . واذن فقد كان مسعاها ينطوي على نيتها التى ترمي الى أن تجعل من دول الوسط أداة لخدمة المصالح الانجليزية .

على انه كيف تجعل هذه الخطة بحيث تتفق ووجهات النظر التى تسير سياسة برلين ؟ اننا نذكر أن ولهلم اشتراسه كانت تطلب منذ سنة ١٨٩٠ محالفة مع انجلترا مستعملة في ذلك كل لهجة ، لكنها كانت تفكر فى محالفة غير التى كان يطلبها وزير المستعمرات الانجليزي . إذ كانت تسعى الى أن تحمى المانيا من تطويق الروسيا وفرنسا لها سائرة فى ذلك على مبادىء بسمرك . والآن وقد بات هذا التطويق أخف خطراً مما كان بفضل ماطرأ على السياسة العالمية ، تظهر من الجانب الآخر نية ترمى الى استخدام المانيا وحليفتيها أداة مهمة لخدمة المصالح البريطانية في النزاع القائم حول المستعمرات فكيف يتفق هذا والفكرة الاساسية التى ترمى الى الاستقلال التام ؟

لقد رد البرنس بيلوف على كتاب هتسفلد الآنف الذكر على الفور وبعبارة أخرى فى ٣٠ مارس فأكد فى أوله — مقتفيا في ذلك أثر بسمرك —

أن « الاتفاق مع انجلترا لا يربط إلا الحكومة الانجليزية القائمة نظراً للحالة السائدة بين الاحزاب وبعبارة أخرى للمبادلة الدائمة بين المحافظين والاحرار فيجب لدوام هذا الاتفاق أن يبرمه البرلمان الانجليزي » . وفيما عدا ذلك فقد نوه بيلوف بان انجلترا ينبغي أن تحاول التفاهم مع الروسيا على شرق آسيا لانها حينذاك لا تعود تخشى عداوة فرنسا . وهذه النصيحة الاخيرة كانت بمثابة روغان مقنع حيال اقتراح تشمبرلن .

على ان وزير المستعمرات الانجليزي لم ييأس بل اعان كما جاء في تقرير لهتسفلد مؤرخ في أول ابريل « انه ايضا من رأيه عرض الاتفاق على البرلمان وانه لا يخامره ادنى ريب في ابرام البرلمان له وموافقة الرأى العام عليه . وهذا الاجراء لا يمنع من ادخال نص أو نصوص سرية على المعاهدة » .

عقب ذلك بيومين قدم بيلوف اعتراضاته على تلك الخطة بحذافيرها فأشار في كتاب الى الموقف البالغ في العداء الذي كانت تقفه الصحافة الانجليزية ثم قال «ان أولئك الذين لا تزال أغاني السخرية من المانيا وأمبراطورها ترن في آذانهم سينضم اليوم في مناهضة المحالفة مع المانيا أنصار النظرية القديمة القائلة باستقلال انجلترا وعزلتها : نظرية اللورد سلسبري ، ثم أنصار التعاون مع فرنسا . فاذا رفض البرلمان والرأي العام الانجليزي المحالفة مع المانيا فان نتيجة ذلك تصبح أردأ لبرلين منها للندن اذ أن المانيا التي لا يرهقها في الوقت الحاضر شيء داخل أوربا أو خارجها أو يهددها من ناحية الروسيا تكون قد حاولت دون حاجة ماسة أن تتحالف مع ألد أعداء الروسيا . على انه اذا أخفقت هذه المحاولة الاولى لان ممثلي الشعب الانجليزي يكونون قد نظروا الى الحالة باهداً من نظرة الساسة الالمان فانه يصبح فرضا من تلك اللحظة فصاعدا على السياسة الفرنسية الروسية أن تناهض المانيا دون تردد وقبل أن يكون أمام انجلترا الوقت الكافي لادراك ضرورة التعاون بين المانيا وبينها - فالمانيا ستصبح والحالة هذه هدفا لعداوة المحالفة الثنائية في حين أن انجلترا

التي تقف اليوم في المقدمة ستنسحب عند اللزوم الى النصف الثاني وتترك دول القارة يناقش الحساب بعضها بعضاً» . وختم بيلوف كتابه بقوله : «ان الحكومة الالمانية لاتستطيع والامور كما هي اليوم ان تعطي الحكومة تأكيداً ما» .

من هذه البيانات تتضح لنا نية برلين جلية وهي اتخاذ الزعم بأنهم في بريطانيا العظمى لايعتقدون بامكان تحقيق اقتراح تشمبرلن ذريعة للرفض فان الالمان لم يريدوا احكام صلاتهم بلندن خشية ان تتعكر بذلك علاقات المانيا بالروسيا وهي التي تحسنت في الزمن الاخير وهذا يطابق الاسس الجديدة التي يبنى عليها موقف المانيا بأسره . وقد جاء جواب تشمبرلن جديراً بالملاحظة إذ أقر صراحة بأن خطته في الانضمام الى المحالفة الثلاثية ترمي الى عرقلة مساعي الروسيا في التوسع في شرق آسيا. وقد ارسل عتسفلد في ٢٥ ابريل سنة ١٨٩٧ تقريرا يقول فيه « ان وزير المستعمرات الانكليزي يرى أن تصريحاً مشتركا بأن الروسيا ينبغي أن تقنع بما حصلت عليه من فائدة وان لاتتجاوز نقطة معينة هو الوسيلة الوحيدة في تجنب الحرب في المستقبل بين الدول ذوات المصلحة في الصين وبين الروسيا اذ ان الروسيا سترى استحالة المضي في خططها بازاء تفوق كهذا » وهذا مطلب كانت المانيا تستطيع أن تؤديه اذا هي اعتزمت ان تخدم الاغراض الانجليزية لكن توغل الدولة السلافية العظمى في شرق آسيا كان من شأنه كما اثبتنا أن سهل مركز المانيا كثيراً فارادة الانكليز أن يقف الالمان في وجه هذا التقدم اجابة لرغبتهم ، وان يحولوا دولة القياصرة الى الغرب الاوربي مرة أخرى هو الوجه الذي كان الانكليز يفكرون على مقتضاه لاخراج انكلترا من عزلتها فكانوا بذلك انما يصدرون عن انانية تكاد تكون ساذجة لانهم كانوا يسعون في طلب العون لمصالحهم الخاصة دون أن يعنوا عناية كبيرة بالشؤون السياسية الحيوية لحليفهم العتيد .وقد حدا بهم الى ذلك ما كانوا يستشعرون من قوتهم

ومن أنهم فى مركز يمكنهم من الاختيار بين فريقى القارة . وهـذا مافعله تشمبرلن حينما أشار في حديثه مع هتسفلد الى انه ليس مستحيلا انكلترا اذا هي اضطرت الى العدول عن المحالفة مع المانيا محالفة يراها طبيعيـة أن تتفاهم مع الروسيا أو مع فرنسا . وهذا من الانجليز لامراء فيه وصحيح أيضاً لـكنه كان يدل في الوقت نفسه دلالة واضحة على أن قبول اقتراح تشمبرلن بجر المانيا الى الاشتراك مع انكلترا ضد الروسيا وفرنسا اشتراكا من شأنه أن يزيد مابينها و بين هاتين الدولتين من خلاف حدة في صورة خطيرة.

ولقد اوضح بيلوف رأيه للسفر الانجليزى فى برلين بما يدل على هذا التبصر وكان ذلك بعد ان ابدى وزير المستعمرات الانجليزي فكرته فى شهر مايو فى خطبة علنية القاها بيرنجهام . فقال فى ١١ يونية سنة ١٨٩٨ في تلخيص رأيه مايلى:

« (١) يجب ان نكون واثقين من ان الحكومه الانجليزية بأسرها والرأي العام القوى فى انجلترا او البرلمان كل اولئك يبرمون المحالفة .

(٢) ان المانيا قائمة جغرافياً بين فرنسا والروسيا . وأمانى الفرنسيين وآمالهم حيالنا معروفة . وليست للروسيا رغبة أو هناك ما يدعوها الى تأييد هـذه الامانى والآمال مادمنا لانهدد مركزها فى آسيا . واذا تم التحالف بين المانيا وانجلترا ثم وجه هذا التحالف ضد الروسيا ألا يكون لهذا رد فعل في العلاقات بين المانيا والروسيا ، وما الذى تقدمه الينا انجلترا بديلا من الضمان والأمن الذاهبين .

(٣) ألم تكن الروسيا أكثر تساهلا حيالنا في مسائل آسيا من انجلترا »

كل هذه الآراء تتفق تماما وأفكار مصرف السياسة الالمانية . وهى معقولة جداً بالنظر الى الحالة العامه التى كانت قائمة اذ ذاك وليس فى الحساب بها كله إلا غلطة كان لها بالتأكيد القول الفصل فى المستقبل وهي ان الالمان استخفوا بامكان تقرب انجلترا الى المحالفة الثنائية فقد كانوا يعتبرون الهوة التى بين الجزر البريطانية والروسيا وبينها وفرنسا أوسع من أن يمكن تخطيها

وكانوا يأملون أن يعظم اتساع هذه الهوة على مر الايام وأن تصبح انجلترا المتكبرة ناضجة لفكرة التعاون مع المحالفة الثلاثية بشروط أخف . لكن هذا لم يقع .

لقد كانت الحالة تلوح بادىء بدء كما لو سيصبح الخلاف بين بريطانيا العظمى وبين فرنسا قبل غيرها على أشده . فانه في خريف سنة ١٨٩٨ اصطدمت الائتلتان في أعالى النيل اصطداما عنيفاً إذ زحف الجنرال الانجليزى كتشنر حتى فشودة التى كانت محتلة إذ ذاك بجنود فرنسية من جنود المستعمرات بقيادة الماجور مارشان فلبثت الحال لحظة وكأنه لامفر من نشوب الحرب بين المتنافسين . لكن هذا التوتر الهائل كان من شأنه أن يوجه الامور اتجاها كان له خطره العظيم على مر الايام . فقد ارتعدت فرنسا وانسحبت وكان لا بد من استقالة الوزارة . ثم جاء وزير الخارجية الجديد دلكاسيه فعقد النية على التراجع أمام انكلترا . وهذه حادثة كان لها على مر الايام تأثير كبير فقد أظهرت ان الجمهورية لا تجرؤ على محاربة بريطانيا العظمى من أجل فتوحات استعمارية لأنها إذ فعلت ذلك أخرها عشرات السنين عن ادراك غرضها الاكبر الذى تسعى اليه في قارة أوروبا وهو استرداد الالزاس واللورين . وهكذا انتهى الخلاف كله في ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ باتفاق بين انكلترا وفرنسا حددت على مقتضاه مناطق نفوذ الفريقين في السودان .

في خلال تلك الاسابيع العصيبة وبعدها أيضاً كانت محاولات تجري لاخراج المانيا من عزلتها التى لم يكن ينظر اليها بارتياح . وكانت المحاولات هذه المرة من جهات عديدة فتكلم تشمبرلن أولا وكان كلامه علنياً مرة أخرى إذ القى خطابا في ٨ ديسمبر سنة ١٨٩٨ عقب اصطدام فاشودة بقليل وقبل تسوية الخلاف مع فرنسا ، أعلن فيه أن من رأيه محالفة المانيا . ومن ينعم الفكرة في الحوادث الخاصة التى كانت سبباً في هذه الكلمات يتبين له الفور أن الرغبة في ارهاب فرنسا لم تكن في ذلك أقل شأنا من نية الاستناد الى

المحالفة الثلاثية على أن برلين لم تأبه هذه المرة أيضاً بتلميح تشمبرلن .

كذلك وقف الالمان موقف الرفض في ربيع سنة ١٨٩٩ حيال محاولة لفرنسا أرادت بها التحقق من امكان التعاون مؤقتاً بين الجمهورية والمانيا . وقد لخص بيلوف وجهة نظره فى ١٤ مارس سنة ١٨٩٩ فى الكلمات الآتية :« اننا نقف حيال محاولات التقرب التى تحاولها فرنسا موقف المجاملة دون أن يكون الاوهام علينا سلطان ، إذ نحن نرى في هذه المحاولات السعي وراء الاستفادة من قوة المانيا لايقاع الهزيمة بخصم فرنسا في ميدان الاستعمار وذلك مع بقاء مسألة الالزاس واللورين مفتوحة حتى اذا فازت فرنسا بغرضها استندت الى ماعكن أن يصبح لها إذ ذاك من النفوذ والقوة وخطت تناقشنا الحساب من أجل الالزاس واللورين . ومن الموافق لنا فى المستقبل أن نقف موقف المنتظر حيال الخصومات العظيمة القائمة فى مقدمة السياسة الاوروبية تلك الخصومات البادية آنا بين انكلترا وفرنسا وآونة بين انكلترا والروسيا . »

ولما اقترحت الروسيا في برلين عقب ذلك بقليل أن تعقد معها معاهدة على الشرق الادنى وضع نفس بيلوف مذكرة فى ٥ مايو سنة ١٨٩٩ بما دار بينه وبين السفير الروسى الكونت أوستن ساكن جاءت مكملة لتلك الآراء التى أتينا عليها . وقد جاء فى أهم أجزائها : « أن السفير الروسى تناول أمس الكلام عن فكرة عقد اتفاق بين المانيا والروسيا على الشرق التركى . وقد قال لى انه فكر فى هذه المسألة وانعم النظر ولكنه لايعلم ماذا يكتب هو نفسه عنها الى بطرسبورج . لان الكونت مورفييف وزير الخارجية الروسية يغار من سفرائه ويسيء بهم الظن الى درجة انه يهمل الآراء والافكار التى تأتيه من ناحيتهم أو يبلغها الى القيصر مقلوبة ، فلم يبق إذن الا أن يفاتح البرنس رادولين سفير المانيا فى بطرسبورج الحكومة الروسية فى الشأن المتقدم . فرددت على السفير الروسى بقولى إن المصاعب التى ألمح اليها لاتمنع من تبادل الآراء بيننا على المسألة التى خاطبنى فيها وقد قلت له انى من أنصار

العلاقات الوثيقة بالروسيا ماأمكن ، وآرائي ورغباتي في هذا الشأن لا بد أن تلقى موافقة جلالة الامبراطور . على أن هنالك شرطا اذا أجبنا اليه كنا مستعدين لعقد كل محالفة في الحال مع الروسيا بل مع الروسيا وفرنسا . وذلك الشرط هو أن تعلن الروسيا وفرنسا استعدادهما لضمان الحالة الراهنة لبلدان الدول الثلاث . وقد رد الكونت أوستن ساكن بقوله : ان هذا ليس ممكنا بعد بالنسبة للفرنسيين فانه ان كان العقل الفرنسي قد نزل عن الالزاس واللورين فان الشعور الفرنسي لم يسمح بعد باعلان هذا النزول رسمياً . ولما قلت للسفير بأني أفكر في أن يكون التفاهم بأية صورة محصوراً بين المانيا والروسيا على شرط أن يكون الاتفاق الذي يتم ضامناً للحالة الراهنة التي عليها بلدان الفريقين سكت السفير »

وهذه الاقوال من مصرف السياسة الالمانية معناها انه لا يمكنه أن يدخل في محالفة مع الروسيا الا اذا استبعد بهذه المحالفة خطر اعتداء فرنسا على المانيا . ولما لم يكن هذا ممكنا كان لا بد لبرلين من ان تتبع حيال الدولة السلافية العظمى أيضاً موقف التحفظ الذي أريد به المحافظة على استقلال المانيا عن كل النواحي .

وهكذا لم تتحول المانيا في أية جهة عن مبدأ الاستقلال والعزلة المختارة وان كانت ترى العمل على جعل صلاتها بكل ناحية ودية ماأمكن . وقد كان الالمان يعنون قبل كل شيء بازالة كل ما من شأنه أن يدعو الى الاحتكاك الاستعماري لانجلترا كيما يمهدوا لها الطريق المأمول الى التعاون مع المحالفة الثلاثية ، التعاون الذي يفهمه الالمان . وقد حدث في ٣٠ اغسطس سنة ١٨٩٨ أن عقد بين بريطانيا العظمى والمانيا اتفاق سري على المستعمرات البرتغالية التي كانت لاتزال في أيدي البرتغال . وكان الاتفاق يعد كلتا الدولتين بنفوذ معين في حالة ما اذا اقتضى الامر البرتغال أن تبيع مستعمراتها فيما وراء البحار . فجاء سالسبوري فقلل من شأن هذا الاتفاق كثيراً لانه كان أكثر تحفظاً من

تشمبرلن فيما يتعلق بالتقرب الى المحالفة الثلاثية ، فضمن عقب عقد الاتفاق بزمن قصير للبرتغاليين حالة ممتلكاتهم الراهنة . ولما طالبت المانيا بأجزاء معينة من صموه وقفت الحكومة البريطانية معها موقف عناد خاص ولم يحمل سالسبوري على المفاوضة مع المانيا الا الضغط الشديد من ناحيتها . وأخيراً عقدت بينهما معاهدة فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ قسمت بمقتضاها جزائر صموه بين الولايات المتحدة والمانيا بينما حصلت انجلترا على جزر تونجا وعلى الجانب الاكبر من جزر سليمان وعلى جهات أخرى في المستعمرات

ومما يدل على أن وزارة الخارجية الالمانية كانت كلما أمضها عدم رغبة انجلترا في التساهل معها تحاول بكل قواها أن تحسن علاقتها بالجزر البريطانية — موقفها الذي وقفته في الحرب التى نشبت في اكتوبر سنة ١٨٩٩ في جنوب افريقيا بين بريطانيا العظمى وجمهورية البوير . فانه على رغم تحمس الصحف الالمانية للبوير تحمساً عظيما كانت الحكومة الالمانية تقف حيال انجلترا موقف حياد تام بل موقفاً ودياً . حتى فرنسا أخفقت في محاولتها حمل المانيا على أن تسعى معها سعياً مشتركا ضد خطط التوسع الانجليزية في افريقيا . وفي آخر نوفمبر سنة ١٨٩٩ سافر الامبراطور غليوم الثاني الى وندسور ليزور الملكة فكتوريا التى كانت إذ ذاك تطعن في السن ، فانتهز هذه الفرصة وباحث تشمبرلن كما باحثه بيلوف الذى كان يرافقه فأعرب الامبراطور عن مخاوفه فيما يتعلق بامكان تنفيذ معاهدة تعقد بين الفريقين ، لكنه نصح بالمضى في الطريق الذي سار فيه الفريقان ابتغاء الوصول الى تفاهم عام . وقد أعقب ذلك ببضعة أيام أي في ٣٠ نوفمبر أن القى تشمبرلن خطبة علنية مرة أخرى وصف فيها الاتفاق بين انجلترا و « الامبراطورية الالمانية العظيمة » بأنه غرض طبيعي لسياسة بلاده ثم قال انه يجب أن تقوم الى جانب اتحاد انجلترا وأمريكا محالفة ثلاثية بين الجنس التيوتونى وفرعي الجنس الانجلوسا كسونى يكون لها تأثير كبير في مستقبل العالم » . وقد كان مما يروق وزير المستعمرات

الانجليزي بالتأكيد أن يطرى في تلك اللحظة هذه الفكرة حيث الرأي العام في كافة أوروبا مغتبط بانتصارات البوير الاولى يجب أن نستنتج منها ان مركز الامبراطورية البريطانية بات مزعزعاً . وفي بداية عام ١٩٠٠ تكدرت العلاقات بين المانيا وانجلترا تكدرا بعينه لان الانجليز صادروا بواخر المانيـة كانت ذاهبة الى جنوب أفريقيا مع ان هذه البواخر لم تكن تحمل مهربات حربية . وقد تشددت برلين بطبيعة الحال فى طلب اطلاق هذه السفن ونفذت طلبها اخيراً . على ان سلسبرى انتفع بهـذه الفرصة لاعلان كراهيته لفكرة محالفة تشمبرلن فأكد للسفير الالماني « انه يريد أن تكون المانيا قوية لـكن السياسية الانجليزية القديمة وهي عدم التدخل في مساومات القارة الصغيرة لا تزال مستمرة » واستمرت حكومة برلين من جانبهـا على عزمها بان تتجنب كل عمل يمكن أن يؤول بانه ضار بالمصـالح الانجليزية فرفضت في مارس طلبـاً للقيصر الروسى يقضي بان تتوسط المانيا وفرنسا والروسيا بين بريطانيا العظمى والبوير . ولما طلب البوير الذين هزموا في اثناء ذلك التوسط من تلقاء أنفسهم وارسلوا الى أوروبا وفـداً برئاسة رئيسهم كروجر رفض امبراطور المانيا استقبال هذا الوفد فدل مسلـكه هذا دلالة لاتحتمل التأويل على ان برلين كانت تتبع منطقها بدقة فى ان لا تمس شعور البريطانيين.

وفي سنة ١٩٠٠ عقـد اتفاق آخر مع الجزر البريطانيـة بمناسبة حرب البوكسير التى كانت قد نشبت ضد الاجانب الاوروبيين في شيء كثير من العنف فقتل فى ١٨ يونيه وزير المانيا المفوض فون كتلر فى مدينة بكين بأيدى الثوار اثناء فلاقل دامت طويلا . فارسلت الدول التى مستها الاضطرابات وهي المانيا وانجلترا والروسيا واليابان حملة مشتركة بقيادة الكونت فلدرسى الالمانى لتأديب العصاة واعادة النظام إلى نصابه . فبهذه المناسبة عقدت المانيا مع بريطانيا العظمى اتفاقا على مناطق النفوذ المتبادلة فى الصين الوسطى بعـد

أن ذلت عقبة كانت قد نشأت في طريقه من الواقعة المعلومة الآتية : كانت الروسيا ترغب في مناهضة انجلترا وكانت انجلترا تريد كما نعلم ان تقيم العراقيل مرة أخرى في وجه التوسع الروسى . فسعى سلسبري اثناء المفاوضات سعياً حثيثاً في أن يضمن الاتفاق المنوي شيئاً موجهاً ضد دولة القياصرة فعارضت برلين ذلك فى شيء من القلق واخيراً تم التوقيع فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٠٠ بين انجلتره والمانيا على مايسمى بمعاهدة ينج تسى التى كان الغرض منها ازالة ما بين الدولتين من خلاف على شرق آسيا . وهكذا حافظت السياسة الالمانية مرة أخرى على حريتها في العمل وطهر الجو في الوقت نفسه مما كان يشوبه وختم بذلك هذا العام الحافل بالحوادث بما عد فألا حسنا للتشجيع على التقرب بين أكبر دولة بحرية وأكبر دولة برية فى أوروبا

فى تلك الاثناء وبعبارة أخرى في ١٨ اكتوبر سنة ١٩٠٠ استقال في برلين البرنس هوهنلوهه من منصب المستشار الامبراطوري وخلفه برنارد فون بيلوف في الادارة العليا لشؤون السياسة الخارجية ، تلك الادارة التى كان له عليها قبل الآن ومنذ أمد طويل أعظم نفوذ . وحدث في ٢٢ يناير سنة ١٩٠١ أن توفيت الملكة فكتوريا وخلفها ادوارد السابع على ملك الامبراطورية البريطانية فعقب هذا الحادث بقليل جرت محادثات مرة أخرى فى هل من الممكن عقد محالفة بين المانيا وانكلترا . وكما كانت الحال الى الآن كان المفاتح فى هذا الشأن هو تشمبرلن فانه في ١٨ يناير سنة ١٩٠١ بعث السفير الالماني من لندن يقول ان وزير المستعمرات البريطاني صرح لفون إيكر تشتين مستشار السفارة في اجتماع خاص التصريحات الهامة الآتية :

«انه وأصدقاءه في الوزارة قد باتوا الآن يستبينون ان وقت السير على سياسة «العزلة المجيدة» قد فات بالنسبة لانجلترا فهي لذلك يجب أن تبحث عن حلفاء للمستقبل . والخيار هو بين روسيا وفرنسا كفريق و بين المحالفة الثلاثية كفريق آخر . وصحيح ان في الوزارة وبين الشعب أصواتا تريد تسوية الخلاف

مع الروسيا والسير معها على قاعدة ثابتة . وهذه مستعدة لان تدفع للوصول الى هذا الغرض ثمنا عاليا جداً لكنه هو لا ينتمي الى أولئك الذين يرغبون في الانضمام الى الروسيا بل هو يعتقد أن الافضل التعاون مع المانيا والانضمام الى المحالفة الثلاثية . وهو شخصيا سيفعل كل شيء من شأنه أن يمهد السبيل تدريجاً الى هذا الغرض . ثم انه من رأيه أن اتفاقا سريا يجب أن يتم بين انجلترا والمانيا في شأن مراكش على القاعدة التي سبق بحثها . وينصح بفتح الموضوع بمجرد سفر اللورد سلسبرى الى الجنوب والمفاوضة في دقائقه مع اللورد لنسدون ومعه . ومادام تشمبرلن مقتنعاً بان في الامكان التعاون مع المانيا بصفة دائمة فهو سيناهض بكل عزم وحزم كل فكرة يراد بها الاتفاق مع الروسيا . فاذا ظهر مع ذلك أن الانضمام الى المانيا بصفة دائمة غير قابل للتنفيذ فانه هو أيضاً سيحبذ المضى مع الروسيا على الرغم من الثمن الهائل الذى ينتظر أن تدفعه انجلترا وهو يرجو أن لا تعتبر تصريحاته هذه — فيما عدا الخاص منها بمسألة مراكش — مفاتحة وطلباً بل بحثاً اكاديميا فحسب»

والذي يلاحظ أولا على هذه التصريحات ان مفاتحة تشمبرلن في شأن التفاهم بين المانيا وانجلترا على مراكش كانت في نوفمبر سنة ١٨٩٩ وبمناسبة زيارة الامبراطور غليوم الثاني لوندسور ، اذ كانت فرنسا تحاول التقدم في تلك المنطقة من شمال افريقيا فلم يجرؤ بيلوف على التدخل حتى لا يقع في نزاع خطر . فاذا كان وزير المستعمرات الانجليزى قد عاد الآن الى هذا الموضوع فقد دل بذلك من جديد على الغرض الذى يرمي اليه من التعاون مع المانيا . فهو في حاجة الى معونة ضد منافسى انجلترا في ميدان الاستعمار . ويدل على هذا أيضاً اعترافه الصريح بانه سيضطر الى الاتفاق مع الروسيا اذا وجد ألا مفر من ذلك . والذى كانت له دلالة على مجرى الامور في انجلترا هو تلك الرغبة في انتظار سفر رئيس الوزارة سلسبورى أولا ثم البدء بعد ذلك بالمحادثات في شأن التقرب التدريجي . ومعنى هذا بصريح العبارة أن تشمبرلن كان يجد

فى هـذا الرجل أكبر معارض له فى نياته . فكان يأمل أن يكسب وزير الخارجية الجديد لنسدون الى صفه . الأمر الذى كان بطبيعة الحال خطوة تذكر الى الامام

أما موقف بيلوف فيظهر من برقية بعث بها في ٢٠ يناير الى السفير الالمانى فى لندن يرسم له فيها خط السير بقوله له « استمع الى الانكليز في بشاشة وسلم لهم بكل اخلاص بأن المانيا وانجلترا مضطرتان في بعض الظروف الى ان تمثل احداهما مصالح الاخرى الحيوية لكن الرأي العام الالماني في الاونة الراهنة لايزال يسيء الظن ببريطانيا العظمى من جراء الموقف غيرالودي الذي الذى وقفته حيال المانيا » . وقد كان الامبراطور غليوم الثانى أكثر تفاؤلا حتى ابرق بمناسبة برقية ايكرتشتين يقول وهو فى طريقه الى انجلترا ليودع الامبراطورة فيكتوريا على سرير الموت الوداع الاخير : « يظهر أنهم أي الانكليز آتون وهوما كنا ننتظره » فجاءه رد المستشار الامبراطوري مطابقا في معناه للتعليمات التى وجهها الى هتسفلد قال : « الآن يتوقف كل شيء على أن لا يقطع أمل الانكليز أو يتركوا ينفضون قبل الاوان فان ارتباكاتهم ستتعظم فى الاشهر المقبلة وتزداد أكثر مما ازدادت . وبازديادها يزداد الثمن الذي يمكن أن نطلبه . وان جلالتكم لتقومون بعمل مجيد حقيقة اذا أمكن جلالتكم بالنظر الى الحالة العامة في العالم والى مصالحنا الحيوية أن تتركوا ولاة الامور من الانكليز يأملون في أن تربطهم بنا في المستقبل علاقة متينة دون أن ترتبطوا جلالتكم أو تبتعدوا » وهذا يدل على انهم في برلين كانوا يضعون نصب أعينهم أن يتعاونوا مع انكلترا ولكنهم كانوا في الوقت عينه يعتقدون أن الانتظار خليق أن يأتيهم بشروط أحسن

والسبب الاكبر فى أنهم عقدوا النية على هذه الخطة كما فعلوا فى سنة ١٨٩٨ هو أنهم لم يكونوا يعتقدون بأن تشمبرلن كان جاداً في تهديده بالتقرب الى فرنسا والروسيا وقد صرح بيلوف في تلغرافه الى الامبراطور بقوله « ان ما يهدد به الانكليز

من التفاهم مع المحالفة الثنائية شبح اخترعوه لارهابنا يلهجون به منذ سنين . ذلك ان التضحية التي يفرضها على انكلترا تفاهم كهذا هي من الجسامة بحيث أن الحكومة الانكليزية لم تصح نيتها على بذلها حتى في الوقت الذي بلغ فيه هياج الخواطر بيننا وبين انكلترا أشده ».

وقد ذهب هولشتين الى حد الابراق بقوله : «انني ضد عاصفة الصداقة التي تهب علينا من ناحية تشمبرلن ورفقائه ، أسيء بها الظن بصفة خاصة لأن مايهددون به من التفاهم مع الروسيا وفرنسا ماهو الا خداع لا أقل ولا أكثر»

هذه النقطة كانت الفاصلة في المسألة كلها . فانه اذا كان الاتفاق بين بريطانيا العظمى وخصومها في ذلك العهد لم يكن في الواقع مما يقبل التفكير ، فقد كادت السياسة الالمانية تكون محقة كل الحق في المماطلة في عقد المحالفة والتسويف فيها إلى أن تصبح الجزر البريطانية مستعدة للتسليم بالمطالب الواسعة التي تتطلبها مصالح المانيا . أما اذا كانت انكلترا أرادت في ذلك الحين أن تجد حليفاً لانها ان لم تجده تتراجع فيكون الامر على خلاف مافرض . وفي الحق أن المسألة كانت تتوقف على وزن الظروف الواقعة بدقة كيما يمكن تقرير الموقف الذي كان يجب أن تقفه برلين .

وهذا ماتبينه الكونت هتسفلد في لندن حين صور الحالة بالتفصيل في ١٠ فبراير سنة ١٩٠١ بمناسبة حديث جرى بين اللورد لنسدون وايكير تشتين سأله فيه وزير الخارجية الانكليزية قبل كل شيء عما اذا كانت المانيا تريد بالاشتراك مع انكلترا واليابان أن تمنع الروس من التقدم في الصين . فقد كتب هتسفلد يقول في وصف الحالة كما كانت تتراءى له : « ان طبيعة المفاتحة التي جرت هنا تجعلني اعتقد انها لم يفكر فيها التفكير الكافي وان كانت بلاشك غير صادرة عن خداع . والفكرة الرائدة لهذه المفاتحة هي حسبما دلتني ملاحظاتي إلى الآن أن انجلترا لايسعها السير بازاء مايهددها في المستقبل من

المصاعب في الصين وغيرها دون أن تستند الى محالفة قوية فى القارة ، وان المحالفة الوحيدة النافعة التى يرغب فيها هى التى تعقد مع المانيا وأنه لابد للانجليز عاجلا من ان يروا ماذا كان قصد كهذا يمكن ادراكه . فاذا لم يكن ممكناً أخذوا بلا تردد في توجيه سياستهم العالمية وجهة أخرى . فتوخوا الحذر في مساعيهم مادام يمكن أن تصطدم هذه المساعي بمساعى الروسيين وقصروا مجهودهم على مبلغ ماتسمح به القوى الميسورة لانكلترا الوحيدة فى الصين وفي غيرها . ثم حاولوا التفاهم مع الروسيا مضحين في ذلك بالشيء الكثير . فمعنى الاقتراح الذي قدمته بريطانيا العظمى الى المانيا بعبارة أصلح « اني أبلغك بصراحة واخلاص انى لاأستطيع السير دون معونتك فاذا أبيت على هذه المعونة فسأختصر شؤوني واذا رأيت أن تشاطرني العمل فبلغني أية شروط تشترطين لذلك » وقد اقترح السفير في الختام أن يلفت انسدون الى ماين المصالح الالمانية والانجليزية في الصين خاصة من تباين حتى تبقى المفاوضات بذلك قائمة .

واذن فقد كان هذا السياسى الماهر يرى أن من المرغوب فيه الرد على طلب الانجليز واحاطتهم بما تطلبه المانيا . وقد وافقت برلين على هذه الفكرة برغم ما كان يخامرها من الشك فى اخلاص سالسبوري وكان مبلغ موافقتها فى اعلانها امكان البحث فى عقد معاهدة دفاعية بين المانيا وانجلترا « تفيد المانيا فوائد مباشرة لامجرد وعود » وفوق ذلك فقد اشترطت برلين أن يكون الطالب صادراً من انجلترا .

وقد وقفت المحادثات الخاصة بذلك برهة قصيرة ثم تقدم اللورد لانسدون في ١٨ مارس الى ايكارتشتين بقوله : « أفي الامكان أن تعقد بين المانيا وانجلترا معاهدة دفاعية لمدة طويلة » ثم أبدى « انه يعتقد أن الكثيرين من أعظم زملائه نفوذاً سيرحبون بهذه الفكرة » . وقد رد بيلوف على ذلك رداً أهم ماجاء فيه :

« ان فكرة اللورد لانسدون الخاصة بعقد اتفاق دفاعي لمدة طويلة بين المانيا وانجلترة مما يلقى هنا قبولا وعطفاً . وطبيعة الاتفاق الدفاعي تقتضى أن لايكون هذا الاتفاق نوعاً من شركة غرضها جلب منافع جديدة وإنما أن يكون اتفاقاً يرادبه المحافظة على الحالة الراهنة لاملاك المتعاقدين وتأمينها . على أن الاتفاق حتى بهذا الغرض من شأنه أن يمس مركز حلفائنا السياسى مساساً أليماً . إذ هو سيجرهم باعتبارهم حلفاء الى أية حرب تقع من جراء ذلك بيننا وبين دولة ثالثة . فنحن لا يسعنا الدخول في اتفاق دفاعي الا اذا سئل حلفاؤنا في ذلك ووافقوا عليه » فالمستشار الامبراطوري الالمانى الذي أراد أن تتناول المعاهدة الدفاعية مع بريطانيا العظمى دول المحالفة الثلاثية كلها اقترح من أجل ذلك أن تولي لندن وجهها شطر فينا للحصول على موافقتها أولا .

ولقد جرت مفاوضات بالفعل لكنها كانت في صورة محادثات خاصة غير رسمية . وقد دلت من جانب الانجليز من أول الامر على اعتراضات كثيرة فاللورد سالسبوري الذى كان اللورد لانسدون يوافيه بما يجرى فيها والذي كان من رأيه «الموافقة على محالفة دفاعية معرفة تعريفاً دقيقاً» اعترض اعتراضات بعينها تتعلق على الاخص بأدخال النمسا وايطاليا فيها . وقد أبرق هتسفيلد في ١٨ مايو يقول « انه مقتنع بأن اللورد سالسبوري لن يرضى بالمفاوضة مع النمسا وايطاليا مادام لايتفق معنا قبلها من وراء ستار . واننا والحال كما نرى لن نسير بالمسألة خطوة الى الامام اذا نحن لم نوافق اللورد لنسدون على البحث هنا أو في برلين في تفاصيلها وصيغتها » لكن وزارة الخارجية الالمانية كانت مستمسكة بالمبدأ الذي وضعته فأكدت ان ادخال حلفاء المانيا في المفاوضات هو النقطة المهمة التى يجب ان تعالج أولا . وقد استبان أولو الشأن في برلين في هذه النقطة ضمانة للمساواة بين المصالح المتبادلة . فالاتفاق الذي كان نصب الأعين قد فكر فيه على قاعدة أن تتعاون انجلترة والمانيا اذا هاجمت احداهما دولتان أخريان . فكانت برلين تتشدد في

ان يتناول هذا النص حليفتيها أيضاً لانه إن لم يقع ذلك فقد يحدث أن تضطر المانيا بموجب المحالفة الثلاثية الى المبادرة الى مساعدة النمسا اذا هوجمت من ناحيتين فى حين تقف انجلتره إذ ذاك تتفرج . وقد دار الخلاف كله في آخر الامر حول مسئلة هي : الى أي مدى تريد انجلتره مساعدة المانيا في حالة تعرض مصالح الامبراطورية الالمانية للخطر . تلك المصالح المرتبطة بطبيعة الحال ارتباطاً وثيقاً بمصالح دول الوسط الاخرى . وقد عالج هولشتين هذه المسألة في مذكرة مؤرخة في ١٤ يونيه ١٩٠١ لمعالجة دقيقة فقال : «اذا نحن أخذنا على عاتقنا العب والمسئولية الباهظين في الدفاع عن الامبراطورية البريطانية بكل مستعمراتها ضد كل ممكن فيجب علينا نحن أيضاً أن نتمسك بأن تعتبر دول المحالفة الثلاثية كلا لايقبل التجزئة كبريطانيا العظمى . حتى اذا وقع اعتداء على النمسا والمجر أو ايطاليا من دولتين أو اكثر لايدخل الحرب الحليفتان الاخريان وحدها بل تدخل معهما انجلترة أيضاً . فأن قصر المحالفة على انجلتره والمانيا يسيء الحالة بدل أن يحسنها إذ ان خصوم المانيا سيعلمون علم اليقين ، مادام مضمون المعاهدة سينشر ، انهم اذا هاجموا النمسا وهبت المانيا لنصرتها وان كانت لم تهاجم رأسا فلن تحرك انجلتره ساكناً». هذا من جهة المانيا . أما من جهة انجلتره فأن سالسبوري لم يسعه الموافقة على وجهة النظر الالمانية لان عدم ثقته ببرلين وهو ما سلم به ملك انجلتره آنفا منعه من اجابة برلين الى ماتطلبه . وهكذا فشلت المحادثات وبقى على انجلتره أن ترد الرد الاخير وقد اعتذر لانسدون للكونت مترنيخ سفير المانيا الجديد فى لندن في ختام العام من هذا الامر بقوله « ان البرلمان الانجليزي انحل لمدة قصيرة على أثر المحادثات وأجريت انتخابات جديدة له » على ان السبب الحقيقي هو ان رئيس الوزارة الانجليزية رأى في المطالب الالمانية شططاً .

ان من يرد الحكم على هذه الحوادث التى أسلفنا وصفها يجب أن يسير في طريقه محاذراً . فالجلي أولا ان الحكومة الانجليزية لم تعرض على الالمان

التحالف بصفة رسمية صحيحة لا في سنة ١٩٠١ ولا في سنة ١٨٩٨ . فالمسألة كانت عبارة عن محادثات لا تربط أحداً ، أراد كلا الفريقين منها أن يتعرف مبلغ الامكان في الاتفاق على تعاون سياسي . والذي فتح الباب في هذا الصدد هو وزير المستعمرات الانجليزي الذي كان يسعى الى نقطة في القارة يستند عليها في تنفيذ خطط توسعه الاستعماري التي أوجدت الخصومة الشديدة بين بلاده وبين الروسيا وفرنسا ، ويطلب — وهذا طبيعي جداً — محالفة المانيا التي لم تكن مرتبطة حيال الروسيا أو فرنسا باعتبار ان مثل هذه المحالفة أنفع غرض يسعى وراءه . ولا مندوحة عن التسليم بأن هذا المسعى كان يحدوه فكرة استخدام المانيا — ولنستعمل هنا عبارة بسمرك — « سيفاً » تصلته انجلترة في القارة . وقد حاول مصرفو السياسة الالمانية أن يتفادوا من الاخطار التي كانت خليقة أن تنشأ عن هذا المسعى فيما يتعلق بعلاقة الالمان بالمحالفة الفرنسية الروسية ، فسعوا في الحصول من انجلترة على تساهلات عظيمة ما أمكن . إذ كانوا يرومون بالمحالفة مع الامبراطورية البريطانية وقاية معينة الحدود من التورط في الحروب . وهذا رأي لا يسع أحد تجريحه من حيث المبدأ . وقد نوهنا في مناسبات عديدة بأن برلين كانت تسعى الى الاتفاق مع بريطانيا العظمى ، وكانت تأمل أن تعامل في هذا الاتفاق على قدم المساواة ، فأرادت أن تتفادى من أن يستخدمها الانجليز في أغراضهم الصرفة . وقد كان هولشتين بصفة خاصة يخشى دائماً من أن يكون قصد انجلترة أن تحرق دول القارة أصابعها في سبيل أغراضهم فدفعته « نظرية الكستناء » هذه كما كان يسميها الى المبالغة في الحذر . وهذا معقول ومفهوم متى كنا نعرف الدور الذي ظلت انجلترة تلعبه حيال أوربا في القرون الماضية . فشكوك وزارة الخارجية الألمانية لم يكن من السهل تبديدها .

لكنه كيف كانت الخطة التي اتبعها الالمان في المفاوضات ؟ انه اذا كانت السياسة هي الفن الذي يدرك به الممكن فكل شيء يتوقف على حسن تقدير

الممكن . فأنصار المحالفة مع المانيا من الانجليز لم يكونوا — كما أمكننا أن نلاحظ — في مركز سهل . واذا غضضنا النظر عن الرأى الانجليزى العام الذى لم يكن موالياً لالمانيا بحال من الاحوال بقيت لدينا المقاومة التى كانت في نفس الوزارة الانجليزية والتى كان سالسبورى على الخصوص منشأها . ثم لما طالبت المانيا بما طالبت به في غيرهوادة أو رفق ، ولما أصرت على أن تجاب هذه المطالب خيف هنا أن يتدخل خصوم الفكرة ويقولوا ان دولة تطلب منا هذا الشئ الكثير لايمكن أن تنفضنا كحليفة . فلو أن أولي الامرفى برلين اتبعوا خطة أسلس من الخطة التى اتبعوها فأخذوا بما كان السفير الالماني في لندن يرتئيه لكان من الراجح أن يسيروا الى أبعد مما ساروا . لكنهم كانوا يعتقدون بأنه لاحاجة الى العجلة ، فلم يأخذوا تهديد الانجليز بالتحول الى المحالفة الثنائية على إنه جد .

على أنه أكان ممكناً أن يصل الفريقان في آخر الامر الى اتفاق يرضى كليهما ؟ ازمصالح الامبراطورية الانجليزية ومصالح الدولة الالمانية القارية كانت من التباين بحيث لايسع امرءا أن يقيم الدليل على انه كان في الامكان التوفيق بينها . حتى بسمرك نفسه لم يكن موفقاً فيما حاوله من جر انجلترة الى جانبه بشروط يمكن قبولها . فهل كان مانحن بصدده ميسوراً حيث مركز المانيا في القارة ضعيف لعدم تجديد معاهدة الضمان ضعفاً شديداً ؟ وهل كان فى الامكان أن يتمنى أحد أن تسير المانيا بعد هذا الضعف فى ذيل الاغراض الانجليزية ؟ وهل كان مركزها يقوى بذلك ؟ كلا بالتأكيد . لان الخطر الذى كان إذ ذاك قد خف من ناحية المحالفة الثنائية — تلك المحالفة التى لم تخرج الى الوجود لان فرنسا والروسيا كانتا تتوقعان تقرب انجلترة الى دول الوسط — تقول لأن هذا الخطر كان خليقاً أن يعظم فى الحال .

فالغلطة هي إذن ان برلين كانت منذ سنة ١٨٩٠ تعتقد فى امكان التعاون مع انجلترة على « قدم المساواة » فبنت أغلب سياستها على هذه العقيدة .

وقد أخطأت فى تقدير حاجات تلك الدولة العالمية التى كانت ترمى دائما الى أن تستغل أحد فريقي القارة بعد أن انقسمت بظهور المحالفة الثنائيـة ، وأن تستخدمه فى أغراضها التى تشعبت مسالكها فى الكرة الارضية . والذي يدعو الى الدهشة أن برلين لم تن عن الاستمرار فى نفس الغلطة حتى بعد أن أخفقت مفاوضات سنة ١٩٠١ . واليك ما كتبه هولشتين روح هذه السياسة قال : « اننا نعتقد فوق ذلك بأن تيار التطور التاريخى العالمي الذى يجرف ارادة الفرد فى آخر الامر لابد أن يلقى بألمانيا وانجلترة فى جبهة واحدة » . من ذلك الحين نصح وزير الخارجية الألمانية بالنيابة باتباع « سياسة الانتظار فى هدوء وصمت »

على أن «تيار التطور» اتخذ مجرى آخر يختلف كل الاختلاف عما كان ينتظر له . اتخذ المجرى الذى رسمته له القوانين التى تسير عليها مصالح الامبراطورية البريطانية . ومن شأن الحوادث التالية أن لا تجعل حول هذا الذى نذكره أى ظل من الشك . فقـد سار الساسة الانجليز فى طريقهم بمهارة ومنطق ، فانصرفوا الى حل مسألة الاتفاق مع المحالفـة الثنائية حلا يكون فى صالحهم وكانت الصعوبة التى تواجههم هي فى أن مناظرتى انجلترا الاثنتين روسـيا وفرنسا كانتا متحالفتين . بل لقد ازداد تحالفهما احكاما بعد اذ أحـسوا الخوف من اتفاق بريطانيا العظمى والمانيا . اذ انه فى سنة ١٨٩٩ لم يوفق دلكاسيه وزير خارجية فرنسا الى تجديد اتفاقات سنتى ١٨٩١ و ١٨٩٣ فحسب بل زاد على ذلك أن عقـد اتفاقا مؤداه أن الاتفاق العسكري الروسى الفرنسى يجب أن يدوم وأن يعيش حتى ولو انحلت المحالفة الثلاثيـة . وبهـذا تظل دولة القياصرة مرتبطة بحليفتها ولو انفضت ايطاليا من حول المانيا أو تداعت النمسا في أملاكها . ومعنى هـذا ان المحالفة الثنائية أصبحت موجهة ضـد المـانيا أكثر من ذى قبل كما أصبح غرضها ليس فقط المحافظة على السلام بل أيضاً الاحتفاظ بالتوازن فحيال هـذه الكتلة اتبعت انجلترة خطة هي أنها تقدمت

رأسا الى نصفها وهو الروسيا التى تنافسها فى شرق آسيا فى حين أخذت تجذب النصف الآخر وهو فرنسا الى ناحيتها . وأهم ما قامت به فى الخطوة الاولى تلك المحالفة التى عقدتها مع اليابان فى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٢ . فان تلك الدولة المغولية التى كانت قد نهضت بقوة فى الشرق الاقصى ، كانت قد نشأت بينها وبين الروسيا خصومة شديدة من جراء ماتطالب به اليابان من جهات بذاتها فى القارة الاسيوية . ولقد بلغ من أمر هذه الخصومة انه كان يتنبأ بوقوع الحرب بينهما . وقد مدت انجلترا يدها الى اليابانيين لصيانة الصين وكوريا والمحافظة على سلامتهما وضمنت لهم وقوفها على الحياد فى حالة وقوع تصادم مسلح ، وتقدمها الى مساعدتهم اذ هبت دولة ثالثة لنصرة الروسيين فشجعت بذلك ألد خصوم دولة القياصرة فى شرق آسيا على مناهضة التوسع السلافى دون أن تقدم هي من ناحيتها شيئاً كثيراً . وفى نفس الوقت الذى كانت انجلتره تجري فيه على هذه السياسة المقنعة ، سياسة مناهضة الروسيا ، كانت تسعى الى التقرب الى فرنسا . لانها بهذه الطريقة تمنع الجمهورية الفرنسية من تجريد سيفها لمناصرة حليفتها اذا نشبت حرب بين اليابان والروسيا . وقد قابل دلكاسيه مساعي لندن بميله الى تسوية الخلاف مع الدولة البريطانية فقد كان الرجل الذى رضى مذلة فاشوده لانه لم يرد أن يحارب بريطانيا العظمى من أجل مسائل استعمارية فى حين كان يريد أن يدخر قوى فرنسا لتنفيذ مآربها في أوربا ، أو بعبارة أخرى لمناقشة المانيا الحساب . ومن ثم كان ينتظر منه أن يتساهل في تسوية الخلاف الخاص بافريقيا ، فقد أرسل السفير الالماني الجديد فى لندن الكونت مترنيخ خلف الكونت هتسفلد الذى توفى خلال ذلك يقول بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٠٢ « أنى علمت بصفة سرية جداً أنه منذ عشرة أيام تدور مفاوضات بين تشمبرلن وسفير فرنسا لتسوية جملة الخلافات القائمة بين فرنسا وانكلترا على مسائل المستعمرات » . وإذن فقد كان وزير المستعمرات البريطانى جاداً في كلامه ففعل بالضبط ما كان يهدد به الالمان

وقد طالت المحادثات مع باريس لكنها كما سنرى تقدمت بفعل الحوادث .

فلقد وقعت مساعي التقرب بين انجلترة وفرنسا في بدايتها فى وقت واحد مع حادث كان له أثر مشئوم بالنسبة لالمانيا ، وكان السبب فيه موقف سالسبوري . فان رئيس الوزارة الانجليزية كان ، كما ذكر ، قد فسخ الاتفاق الخاص بالبحر الابيض المتوسط مع ايطاليا والنمسا والمجر فتركت بذلك ايطاليا وحدها مع منافستها فرنسا وفقدت بازائها السند الذي كانت تستند اليه . وهنا أخذت فرنسا تضايق مناظرتها اللاتينية وتمض عليها حياتها كل مايمكن ان يخطر ببال فكان من جراء ذلك ان بدأت تنجح معها ، إذ كان لابد لايطاليا من جار قوى تتفاهم معه بخاصة وهي ترمي فى منطقة البحر الابيض المتوسط الى الفتوحات . ففى سنة ١٩٠٠ أخذت هذه الخطة تثمر مستندة الى الاتفاق الانجليزى الفرنسى المؤرخ في ١٨٩٩ . وذلك انه لما حلت سنة ١٩٠٢ كان ينبغى تجديد المحالفة الثلاثية فطلب الوزير الايطالي برنيتى ادخال نص جديد ينبغي أن يفهم منه « أن لاتقوم ايطاليا بتعهدات يمكن أن تكون خطرة على فرنسا » ثم أراد فوق ذلك ان يحصل من المانيا على وعد بالمحافظة على الحالة الراهنة في الشرق الادنى . فرفضت برلين وقتياً أي تغيير فى نص المعاهدة ونجحت في حمل رومه على التسليم ومد أجل المحالفة الثلاثية في ٢٨ يولية ١٩٠٢ بالصورة التى كانت عليها حينذاك . ولم يكد يقع هذا حتى أبلغ برنيتى الفرنسيين ان بلاده لم تعقد اتفاقات ما موجهة ضد فرنسا وبعد ذلك ببضعة أشهر تبادلت روما وباريس في أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ مذكرات حصلت ايطاليا بموجبها فى طرابلس وبنى غازى وفرنسا فى مراكش على حق توسيع مناطق نفوذها في اللحظة المناسبة حسبما تشاءان . وقد كانت نتائج هذا الاتفاق المعقود بقصد التوسع المتبادل فى منطقة البحر الابيض المتوسط دون قيد ذات صبغة مزدوجة . فمن ذلك الحين اصبحت ايطاليا عضوا غير مؤمون بالمرة فى معسكر المحالفة الثلاثية واستفحل مركزها

هذا بطبيعة الحال فى الوقت الذى تقربت فيه انجلترا الى فرنسا . أما فرنسا فقد أصابت نفعا عظيما اذ نجحت في احداث ثلمة فى البناء الذي شاده بسمرك ثم فى كسر الحائط الجنوبية التى كانت قائمة في وجهها تفرض عليها العزلة ، حتى لقد عدت باريس المعاهدة المعقودة بينهـا وبين روما بمثابة وعد من ايطاليا بالوقوف على الحياد اذا نشبت الحرب بين المانيا وفرنسا .

فى خلال ذلك كانت الروسـيا تستعد فى بطء ولـكن في منطق دقيق للاصطدام المنتظر مع اليـابان ، فوضع ولاة الامور فى بطرسبرج نصب أعينهم قبـل كل شيء أن يكون ظهرهم أميناً فى أوروبا اذا جد الجد فى شرق آسيا .

وقد حدث في يناير سنة ١٨٩٩ ان طلب القيصر نيقولا الثاني الى حكومات الدول الاخرى أن تدعو الى مؤتمر سلام يبحث فى امكان وقف التسلح مدة خمس سنوات وتشكيل لجنة تحكيم تنظر فى الخلافات التى تقع بين الدول. وقد أفشى ويت وزير المالية الروسية إذذاك في مذكراته ان السبب فى هذا المطلب كان يرجع الى أن النمسا والمجر كانت معتزمة فى ذلك الحين أن تقوى مدفعيتها تقوية شديدة بينما كانت الروسيا لا تملك الوسائل التى تمكنها من القيام بالمثل . وقد اجتمع المؤتمر المقترح فى لاهاي وظل منعقداً من ١٨ مايو الى ٢٩ يوليو سنة ١٨٩٩ واشتركت فيه ٢٦ دولة ، فـكانت تمثل فيه رواية فى الوقت الذى كان استعمار الدول العظمى قد وصل الى القمة بما بلغ من الفتوحات الهائلة في آسيا وافريقيا ، اذ كان ممثلو هذه الدول العظمى بعينها يظهرون رغبتهم في السلام فى خطب حماسية في حين كانوا يعتقدون في صميمهم باستحالة تنفيذ المقترحات الروسية . وقد أبدت المانيا وساوسها في صراحة مجردة من الحذر فتعرضت بذلك للملامة ، واتهمت بأنها أفسدت ذلك العمل النبيل وعاقت تنفيذه . وقد رفضت الدول جميعها فيما عدا الروسيا طبعاً وقف التسلح ، غير انها قررت انشاء محكمة دائمة للتحكيم تعرض عليها من مسائل الخلاف مالا يمس

الشرف القومي والمصالح الحيوية للدول . وقد أعلنت المانيا بعد أن عارضت في المبدأ انها موافقة . ثم حدث عقب ارفضاض المؤتمر أن نشبت الحرب بين انجلترة والبوير فجعلت الروسيا تضم الى نفسها أراضي واسعة في الصين .

وفي سنة ١٩٠٢ لما اتفقت بريطانيا العظمى مع اليابان نشطت بطرسبرج تحاول حمل الامبراطورية الالمانية على مناصرتها في فتوحاتها في شرق آسيا فطلبت أن تعقد معها اتفاقاً مشتركا على مناطق تلك الجهة ، لكن بيلوف لم يوافق بالمرة لان مناصرة المساعي الروسية لم تكن تتفق ومبدأ حرية العمل التي كان يطلبها ، كما لم يوافق على مؤازرة الانجليز . ولما لم تستطع الروسيا بهذه الكيفية الحصول على مساعدة ايجابية عنيت بأن تحصل على الضمانات الضرورية التي تحول دون وقوع تبدلات فجائية فى الشرق الادنى في حين أخذت في الشرق الاقصى تحقق خططها .

وكون الروسيين لم يصرفوا النظر بحال من الاحوال عن أغراضهم القديمة في البلقان بل أجلوا النظر فيها أمر يدل عليه أحكام رابطتهم ببلغاريا ذلك الاحكام الذي كان قد تم في سنة ١٩٠٢ ولما يكد . فقد عقدت الروسيا في شهر مايو من تلك السنة مع هذه الدولة اتفاقا عسكرياً وعدتها فيه بالوقوف الى جانبها اذا اعتدت عليها النمسا والمجر أو هاجمتها رومانيا ، لكن بلغاريا لما أبدت ميلها الى منازعة تركيا فى مقدونيا حيث كانت لليونان وللصرب مطالب مزعومة ، ثم لما ازداد الاضطراب في الزاوية الجنوبية الشرقية من أوروبا من جراء اغتيال اسكندر ملك الصرب فى بلغراد فى يونية سنة ١٩٠٣ واجلاس بطرس قره جورج فيلش على العرش بواسطة الجناة — نقول لما حدث ذلك كله بادرت الروسيا الى اتخاذ الاجراءات للحيلولة دون وقوع مفاجآت مقلقة ، فتفاهم نيقولا الثاني فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٠٣ مع النمسا والمجر على معاهدة فحواها ان الروسيا ومملكة الطونة ينبغي أن تسهرا معاً على تنفيذ اصلاحات معينة فى مقدونيا كانت قد طلبتها الدول من تركيا . وذلك

تفادياً من وقوع انقلابات . وهكذا أخمدت النار التي كانت توشك أن تشب بعد أن عنيت الدولتان المتنافستان بالمحافظة على النظام ، وأمكن لروسيا دون عناء كبير أن تنصرف الى شؤونها الاسيوية .

وفي فبراير سنة ١٩٠٤ نشبت الحرب اليابانية الروسية تلك الحرب التي كانت بعض الدوائر ترى منذ أمد طويل أن لامفر من وقوعها ، وأمكن انكلترا أن تحول دون اشتباك فرنسا في هذه الحرب بما كان قد تم لها من التقرب تدريجاً نحوها وبذا لم تكن هناك حاجة الى أن تجرد هي نفسها سيفها وقد التزمت المانيا الحياد الدقيق فاضطرت الروسيا الى القتال وحدها الى النهاية وقد كان هذا الصراع العنيف بين الجنس السلافي والجنس المغولي في الشرق الاقصى حادثاً لاوروبا على أعظم جانب من الاهمية والشأن . ولو كانت الحكومة الالمانية حدتها كما عزى اليها الرغبة حقيقة في اخضاع الشعوب المجاورة لها وانتزاع السيادة في أوروبا لنفسها لكانت قصدت في ذلك الوقت الى جر فرنسا الى حرب باية ذريعة كانت . ولو فعلت لضمنت أن لاتتلقى الجمهورية من حليفتها الروسية أية معونة . وفي الواقع انها لم تفكر لحظة واحدة في اتباع مسلك كهذا مع ان الفرصة كانت سانحة لها للقضاء على الخطر الذي كان يؤاتيها من التطويق الفرنسي الروسي . وليس أدل من هذا على حب برلين المطلق للسلام . كذلك النمسا والمجر لم تنتفع بتلك اللحظة المناسبة للزحف على البلقان . وفي الحق أن دول الوسط لم تكن تحدوها الا الرغبة في المحافظة على الحالة الراهنة لانها كانت ترى في المحافظة عليها خير ضمان لمصالحها . هذا من جهة ، أما من الجهة الاخرى فقد كانت انكلترا وفرنسا تعدان الاوان قد آن لتسوية ما بينهما من خلاف وعقد محالفة وثيقة . وقد كان لابد بطبيعة الحال من ان تزداد الرغبة في باريس في الاستناد الى الامبراطورية البريطانية منذ دخلت صديقتها السلافية في مغامرة مسلحة وبخاصة بعد أن ظهر ان هذه المغامرة لم تجر بما تشتهي بل أدت الى ضعفها .

وقد تقدم اتفاقهما على مراكش من سنة ١٩٠١ في بطء كما المعنا وأرسل البارون فون ايكرتشتين في ١٠ مايو سنة ١٩٠٣ تقريرا الى المستشار الامبراطوري أعرب فيه عن رأيه بقوله « ان المفاوضات الانجليزية الفرنسية السابقة التي أريد بها تسوية الخلافات القائمة قد استؤنفت من جديد ، وهي خليقة هذه المرة بالنجاح » وقد كان الملك ادوارد السابع قبل ذلك بقليل قد استقبل في باريس استقبالا بالغاً في الود . وفي خريف هذه السنة بعينها كان قد جاء من لندن أن دلكاسيه اقترح على الانجليز أن يتفاهم وإياهم على المستعمرات ، غير انه تلقى من اللورد لنسدون رداً بالرفض .

وفي ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ تم الاتفاق فوقعت فرنسا وانجلترا في هذا اليوم معاهدات سوت جميع مسائل الخلاف التي كانت قائمة الى ذلك الحين بين الدولتين في البلاد الاجنبية . فاتفق الفريقان على حقوقهما في نيوفوندلند ومدغشقر وهيريد الجديدة وسيام وتناول اتفاقهما قبل كل شيء مناطق النفوذ في شمال افريقيا فأطلقت فرنسا للجزر البريطانية يدها في مصر وأقرت بريطانيا العظمى الجمهورية على مثل ذلك في مراكش إذ سمحت لها بأن تسهر على الهدوء هناك ، وان تقدم مساعدتها في كل ما يتعلق بالاصلاحات الخاصة بالادارة والاقتصاد والمالية والحربية . وقد أذيعت هذه الاتفاقات عقب ذلك لكنه في نفس الوقت عقدت الدولتان اتفاقاً سريا لم يعلم أمره إلا في سنة ١٩١١ وكان أبعد مدى من الاتفاقات الاخري اذ حصلت الحكومة البريطانية بموجبه على حق اجراء اصلاحات بعينها في مصر ابتغاء سيادتها على تلك البلاد بينما قد أمكن الحكومة الفرنسية ان تقدم اقتراحات من شأنها أن تخدم في مراكش مثل الغرض الذي ترمي اليه انجلترا في مصر .

فهذه الاتفاقات التي أوردنا خلاصتها لم يكن معناها ازالة كل ما من شأنه ان يدعو الى الاحتكاك بين انجلترا وفرنسا ازالة تامة فحسب بل هي قد جاوزت ذلك الى اتحاد تناول المستقبل ، فقد وعدت كلتا الدولتين الاخرى بتأييدها

ديبلوماسيا فى مصر ومراكش ، وأرادت كلتاهما أن تصون مصالحها المشتركة من تدخل الدول الاجنبية، واذن فلم يكن الامر عبارة عن محالفة عامة ، بل كان اتفاقا أسموه الاتفاق الودى . وهكذا أمكن أن يتغير المركز السياسى دفعة واحدة بعد إذ مدت كلتا دولتى الغرب في أوروبا يدها الى الاخرى . وزال عن ألمانيا الامن الذى كانت تحسه من وجود التنافر بين انجلترا وفرنسا ، وهذا ربح عظيم لفرنسا ونجاح لابد أن يكون دلكاسيه ، وهو من أشد أنصار فكرة الانتقام من الجارة الالمانية ، قد رحب به ، فقد كان يسعى الى تأسيس الوفاق الثلاثى عندما أقترح ان يتناول الوفاق الودي الروسيا أيضا لكن لندن لم يكن يسمها بعد أن ترضى بذلك احتراماً لليابان التى كانت فى حرب مع دولة القياصرة . على أن دلكاسيه سرعان مانجح — كما سنرى — فى اكساب اتفاقه مع انجلترا نصا موجهاً الى المانيا .

فقد حاولت برلين ان تنتزع من تحول بريطانيا عنها مافيه من ضرر ، وكان مركز الروسيا في شرق آسيا يزداد صعوبة شهراً فشهرا وكان النصر حليف اليابانيين . فلما حدث أن أطلقت سفن روسية حربية النار فى اكتوبر سنة ١٩٠٤ خطأ على بعض سفن الصيد الانجليزية على شاطىء دوجير وأفضى هذا الحادث الى توتر العلائق بين لندن وبطرسبرج ، انتهز الامبراطور غليوم الثاني هذه اللحظة وأرسل الى القيصر نيقولا الثانى فى تلغراف أقرته وزارة الخارجية الالمانية يمهد لفكرة اتفاق الدول القارية الثلاث : المانيا والروسيا وفرنسا . فوافق القيصر ورجا الامبراطور أن يبعث اليه بالقواعد التى يريد أن يبنى عليها هذا الاتفاق فتم ذلك وبعث العاهل الالمانى رسالة تتضمن مشروع معاهدة دفاعية بين المانيا والروسيا . ثم تبودلت المراسلات التفصيلية . ثم ظهر ان ماكان يرجى من انضمام فرنسا الي الاتفاق كان النقطة الشائكة في المسألة باسرها . وقد طلب نيقولا الثانى في ٢٣ نوفمبر ان تبلغ

المعاهدة باريس أولا لتوقيعها فرفضت المانيا هذا بحق، اذ عدته خطراً ، وحبطت المساعي كلها . ومن المؤكد ان الكونت لاندزدورف وزير الخارجية الروسية كان ممن ساعدوا على هذه النتيجة السلبية .

فى تلك الاثناء أخذ الفرنسيون يجنون ثمار اتفاقاتهم مع الانجليز فجعلوا يتوسعون تدريجاً فى مراكش وينفذون سياسة الامتلاك الهادي الذي أطلقوا عليه ذلك الاسم الجميل «التوغل السلمي» ففي ٣ اكتوبر سنة ١٩٠٤ عقدوا اتفاقا مع اسبانيا أعطوها بموجبه خط الساحل فى شمال مراكش فيما عدا فاس . وكان هذا المسلك كالمعاهدة السرية بين لندن وباريس يناقض على خط مستقيم ما كان قد عقد قبل ذلك فى مديد من الاتفاقات بين الدول على المنطقة التى نحن فى صددها . وهي اتفاقات نصت على انه لا ينبغي لدولة بمفردها ان تخرج على المعاهدات الدولية إلا بموافقة الدول الاخرى . فلما ان ظهر جلياً ان الجمهورية الفرنسية قد سلكت مسلكا منفرداً اعتماداً على بريطانيا العظمى ومدت نفوذها على هواها متخطية فى ذلك المانيا صممت برلين في ربيع سنة ١٩٠٥ على الاحتجاج ، فحمل الامبراطور غليوم على الرغم من كراهيته الشديدة لتلك الخطوة على أن ينزل فى طنجة اثناء زيارة له فى البحر الابيض المتوسط وان يعرب عن رغبة المانيا في أن يظل سلطان مراكش مستقلا . فوقع هذا فى ٣١ مارس وكان مصرفو السياسية الالمانية يبغون بهذه المظاهرة المصحوبة بالضجة أن يلفتوا العالم إلى ان لبلادهم حقاً في أن تشترك مع غيرها في التدبير وان تقدم مطالب بعينها . أما الجانب الآخر فقد فسر هذه المظاهرة الفجائية المسرحية بأن المانيا تنوي بصفة جدية ان تقف فى وجه فرنسا ورفعت الصحف الانجليزية والفرنسية أيضا عقيرتها بصياح الاستياء .

ولقد انتهز المسيو دلكاسيه هذه الفرصة في الحال للحصول من انجلترا على تساهلات مهمة تتعلق بمد يد المعونة العسكرية فسمحت له الحكومة الانجليزية فعلا بأن تجري محادثات مباشرة بين الملحق الفرنسى البحري في

لندن وقائد امارة البحر البريطانية اللورد فيشر كما سمحت بمحادثات أجراها وسيط بين الملحق العسكري الفرنسي في لندن والوزارة الحربية البريطانية . ولسنا نعلم بالتأكيد ماانتهت اليه هذه المحادثات لان الاقوال فيها مختلفة والراجح انه ترك فى ذلك الوقت باب الأمل مفتوحاً في انزال جنود انجليزية في القارة اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا .

أما في برلين ،حيث كانوا بعيدين عن أن يجردوا السيف، فقد واظبوا على الموقف الذى وقفوه مرة ووصلوا أخيراً باستعمال الضغط الى أن استقال دلكاسيه في أوائل يونيه سنة ١٩٠٥ بعد أن لم تعد كثرة المجلس تؤيده . ولاشك ان هذا كان نصراً لالمانيا اذ اختفى من باريس خصم أريب ذوعزيمة . على أن برلين لم تنتقل بعد ذلك الى الدخول مع الفرنسيين في مفاوضات مباشرة مستفيدة من الميل الذى ظهر للتساهل بعد أن حلت بالفرنسيين هذه الهزيمة السياسية ، بل تمسكت باقتراح عقد مؤتمر دولي يكون للجميع حق الكلام فيه باعتبار ان لكل الامم في مراكش أن تكون مع بعضها البعض على قدم المساواة فى الشؤون الاقتصادية .

وبينما كانت هذه الامور تقع في الغرب كانت دولة القياصرة تتلقى على يد خصمها الياباني في الشرق أشد الضربات ، فدمر الاسطول الروسى في شهر مايو عند تشوشيما ، وظهرت في الروسيا نفسها ميول مقلقة الى الثورة ، فاضطرت بطرسبرج الى أن تقبل وساطة رئيس الجمهورية الامريكية روزفلد وعقد الصلح في ٥ سبتمبر في بورتسموث . وقد نزلت الدولة السلافية العظمى المهزومة بموجب ذلك الصلح عن منشوريا وكوريا وتنزلت للظافر عن منطقتها فى شرق آسيا وكانت هذه خاتمة المساعي العظيمة التى بذلتها الروسيا للتوسع في الشرق الاقصى .

* * *

في الوقت الذى أمكن الألمان أن يتنبأوا فيه بهذه النتيجة حاول الامبراطور غليوم مرة أخرى أن يتغلب على الخطر الذي كان يهدد باساءة

مركز المانيا العام وذلك بعقد محالفة مع الروسيا . فنيقولا الثانى الذي كانت هزائمه قد أثقلت ظهره بالهموم ، اقترح على العاهل الالمانى أن يجتمع به في بيجركو من أعمال فنلاندا اجتماعاً سرياً . وفي هذا الاجتماع طرح مشروع المعاهدة الدفاعية الآنف ذكره . فأبرق الامبراطور الذي كان في اوستسى طلباً للراحة الى بيلوف ، وهذا ولى وجهه شطرهولشتين يسأله رأيه فأرسل هولشتين نص المشروع الاصلى مشفوعاً برأيه « بأن من المستحسن الانتظار الى أن يطلب الفريق الثاني الاتفاق » وانضم المستشار الامبراطوري لهذا الرأى . وعقب ذلك بيومين أي في ٢٤ يوليو جاء الخبر من بيجركو أن القيصر وقع المعاهدة . وقد وصف الامبراطور غليوم ماحدث فى كتاب مفصل الى بيلوف يدل على الحالة النفسية التى كان عليها اذ ذاك ، اذ كان سعيداً كل السعادة أن وفق الى خدمة بلاده خدمة عظيمة . قال « ان مارفضته الروسيا فى الشتاء الماضى فى عظمة واباء وما حاولت أن تعدله رغبة منها فى الدس لنا قد قبلته الآن مع الشكر معتبرة اياه هبة قيمة ، وذلك بعد أن أزلتها يدالاله القدير » بهذا بدأ الامبراطور بيانه ثم شرح كم كان تأثر القيصر عظيما من اجتماعه به وكيف دار الحديث فى اليوم التالى عند تناول طعام الافطار فى اليخت الروسى على انجلترا التى سبب موقفها لنيقولا الثاني هموماً عظيمة وكيف توجه العاهلان بعد ذلك الى قرة القيصر اسكندر الثالث المتوفى حيث أخرج امبراطور المانيا من جيبه معاهدة المحالفة وبسطها أمام العاهل الآخر . « وقد قرأها مرة ثانية وثالثة فدعوت الله أن يشد أزرنا ويحول العاهل الشاب ، وقد كان في مثل صمت الاموات لايسمع فى خلال ذلك الا صوت الامواج . والشمس فى تلك الاثناء تنفذ أشعتها مرحة فرحة الي القمرة الحزينة وأمامى كلمة الهوهنزلرن مضيئة ، وفى الفضاء يرفرف العلم الامبراطوري يداعبه نسيم الصباح . وبينما أقرأ فوق صليبه الاسود كلمة « الله معنا » سمعت القيصر الي جانبى يقول « ان هذا عظيم جداً . اني موافق » . هنا نبض قلبى نبضاً قوياً

كنت أسمعه فاستجمعت نفسي وقلت في شيء كثير من قلة الاكتراث « أيوافقكم أن توقعوا ؟ ان هذا يكون تذكاراً جميلا لالتقائنا ؟ » فألقى نظرة على الصحيفة ثم قال « نعم سأوقع » ففتحت الدواة وقدمت اليه القلم فأمضى بيد ثابتة « نيقولاوس » ثم أرجع القلم إلى فوقعت ولما نهضت عانقني متأثراً » والذي يقرأ هذه الأسطر لا يتمالك نفسه من التأثر اذ يرى فيها ما ينم عن غبطة حقيقية لا تكدرها شائبة. ففيها أسلوب غليوم الثاني وشعوره الفياض وتحمسه الذي يكاد يكون ساذجاً للعمل الطيب وفيها امتزاج التقوى بالاعتداد بالنفس .

على انه كيف كانت الحقيقة المجردة ؟ وهل أمكن أن يدوم العمل الذي قام به العاهلان وهما في حالة الانفعال الذي أوحته تلك اللحظة المؤثرة ؟ فقد حلت خيبة الأمل سريعة وكان أول دش بارد من ناحية بيلوف إذ كان الامبراطور الالماني قد غير في موضع من نص الاتفاق الذي بعث به وكانت المادة في الأصل هكذا : « انه في حالة هجوم دولة أوروبية على احدى الامبراطوريتين ويجب على الحليف أن يساعد حليفه بكل قواه بحراً وبراً » فغليوم الثاني لكي يبعد عن المانيا أي تعهد خارج القارة كتب « ويجب على الحليف أن يساعد حليفه في أوروبا بكل قواه . . . . » وكان المستشار الامبراطوري الذي سلم باديء بدء أن عقد المعالدة قد كان عملا عظيما قد بات من رأيه ان هذه الزيادة تضر بألمانيا وكذلك رأى هولشتين انه في حالة حدوث حرب بين المانيا وانجلترا لا يكون على الروسيا أن تزحف على الهند بينما المساعدة التي تنتظر منها في أوروبا نفسها لا يكون لها قيمة مدة سنة كاملة من جراء الهزيمة التي أوقعتها بها اليابان . وقد دفع الامبراطور هذه الاعتراضات وتمسك بوجهة نظره . وهدد بيلوف بالاستقالة لانه لا يريد أن يتحمل مسئولية هذا الاتفاق والذي كان يقصد اليه من هذا ليس حلياً كل الجلاء فان خطابه الذي بعث به الى هولشتين خاصاً بهذه المسألة ليس بين أوراق وزارة الخارجية فهل كان العاهل قد استقل بالعمل أكثر مما يجب فأراد أن يفرض عليه أن لا يذهب

الى هذا المدى فى المستقبل ؟ لانعرف . والذى نعرفه ان غليوم الثانى كان كمن اصيب بضربة من هذا المسلك الذي سلكه معه مستشاره الاول . وقد كتب الى بيلوف رسالة يبين بين ثناياها تأثره العميق ، رسالة أعلن فيها « إن استقالة مستشار الامبراطورية لن تجده على قيد الحياة » وطلب هولشتين بالحاح ان يتجنب ولاة الامور في بطرسبرج اقتراح اي تعديل في المعاهدة حتى لايجد الروس عذراً من اقامة العراقيل . على أن هذه العراقيل قد قامت على الرغم من ذلك فانه بعد أن أبدى رئيس الوزارة الروسية فيته الذى كان الامبراطور قد تباحث معه شخصياً في رومنتين بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٥ انه موافق كل الموافقة وطلب أن تعطى التعليمات الى السفراء الالمان والروس « أن يتعاونوا فى المستقبل على العمل تعاوناً وثيقا كيما يمكن اكتساب فرنسا تدريجاً واعداد العالم رويداً لهذا الحادث العظيم » أخذ وزير الخارجية الروسية لمسندورف يعارض معارضته القديمة اذ سئلت الحكومة الفرنسية بناء على طلبه ماذا يكون موقفها حيال محالفة في القارة فبعث نيليدوف سفير القيصر في باريس بتاريخ ٥ اكتوبر يقول ان روفييه رئيس الوزارة الفرنسية قد رفض مصرحا « بأن عندنا محالفة وهى تكفي وحليفنا هو أنتم ورغبتنا هى أن نستمسك بها . أما الدخول فى اتفاقات اخرى فلا نريد الدخول فيه بحال من الاحوال » وهكذا حبطت الخطة كلها بسبب فرنسا التى قل اذ ذاك ميلها الى الاشتراك مع المانيا فى عمل عن ذى قبل بعد انضمامها الى انجلترا . وقد كتب نيقولا الثانى في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٥ الى الامبراطور غليوم يقول انه يخشى الا تنضم فرنسا الى المحالفة وهو لذلك يرتئى اضافة نص على المعاهدة مؤداه ان لاتتناول المساعدة المتبادلة حربا تقع بين المانيا وفرنسا فحبط المشروع كله وتبدد ذلك الحلم اللذيذ بعد بضعة اشهر وجعل الظلام يحيق من ذلك الحين بمركز المانيا

وفي نهاية عام ١٩٠٥ سقطت الحكومة المحافظة التي كانت قائمة في انجلترا وحلت محلها وزارة من الاحرار برئاسة كامبل بانرمان ، فلم يكد وزير الخارجية الجديد السير ادوارد غراى يتولى منصبه حتى كلف بول كمبون سفير فرنسا فى لندن من لدن حكومته بان يسأله عن مبلغ استعداد بريطانيا العظمى لتقديم المعونة المسلحة الى فرنسا اذا فشل مؤتمر الجزيرة الذى يزمع أن ينعقد ، وتحرجت الحال بين باريس وبرلين تحرجا أفضى الى حرب مع المانيا . فغراى الذي لم يكن قد ألم بالحالة بعد كما قال نفسه ، أجابه جوابا غامضا بعض الشيء وتحاشى الموافقة الصريحة لكنه أبدى له « كرأيه الشخصى » ان الرأى العام فى انجلترا لا بد أن يتحرك لمصلحة فرنسا اذا اعتدت المانيا عليها من جراء مسألة تنشأ عن الاتفاق الانجليزي الفرنسي الخاص بمصر ومراكش وبعد ذلك فللظروف وحدها الفصل فيما يحدث . ثم نصح فى الختام بأن تتشاور فى هذه الاثناء وبصفة غير رسمية وزارتا البحرية والحربية الانجليزيتان من جهة والملحقان الفرنسيان البحري والحربي من جهة أخرى فيما هو أحق أن يتبع اذا تحالفت الدولتان فى حرب ضد المانيا. وهذا بطبيعة الحال تساهل كبير حيال رغبات فرنسا إذ أن غراى لم يكتف فى ذلك بالاخذ بما وصل اليه لنسدون بل تجاوز هذا الحد الى التفاهم المباشر في الشؤون العسكرية — ذلك التفاهم الذى كان يجرى قبل الآن بين هيئتى أركان الحرب في البلادين . وقد كان كامبل بانرمن يخشى لما سمع بهذه المسألة أن يكون فى محادثات كهذه تعهد من جانب بريطانيا العظمى حيال فرنسا أو على الاقل نوع من التفاهم الصامت . وغراى يقره اليوم على هذا إذ يعترف بأنه كان خليقاً ان يشاطره خوفه لو أن خبرته بالموضوع كانت أكثر مما كانت. فهل كانت المسألة حقيقة قلة خبرة من وزير الخارجية الجديد أو كانت نتيجة اقتناعه بأن انجلترا كان عليها أن تساعد فرنسا . وهو ما اعترف به صراحة فى نفس الوقت . وعلى كل فقد أفضت خطوة غراى الى نتيجة مشؤومة هي أن

المشاورات التى دارت بين هيئات أركان حرب البحرية والحربية فى الدولتين أعقبت اتفاقات معينة تعيينا ثابتاً ومحضرة بدقة : اتفاقات عن الاجراءات التى يجب ان تتخذ براً وبحراً فى حالة وقوع الحرب مع المانيا . وان دل هذا على شىء أفلا يدل على تحريض عظيم لحكومة في باريس كانت تميل الى تحقيق فكرة الانتقام ؟ وبغض النظر عن هذا فان موقف غراي الذي أتينا على وصفه هنا كان يدل على التحول الهائل الذي تم في لندن منذ قام الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا . فلقد كانوا مبدئياً مستعدين لان يهبوا لنصرة فرنسا اذا هوجمت . كما ان هذه الجمهورية كانت تعتمد بحكم اتفاقاتها ليس فقط على الروسيا بل أيضاً على بريطانيا العظمى وتوقن بمدها يد المساعدة اليها اذا ما لاح لها ان المانيا تكدر السلام .

وقد افتتح مؤتمر الجزيرة فى ١٦ يناير سنة ١٩٠٦ للنظر فى شئون مراكش فظهر في جلاء مزعج ان المانيا من الوجهة الديبلوماسيه لا يسعها ان تعتمد الا على النمسا والمجر . أما بقية الدول فكانت تؤيد فرنسا : تؤيدها الروسيا وانجلتره لانهما حليفتان لها على كل حال ، وتؤيدها اسبانيا لانها لم تكن تجرؤ ان تفعل شيئاً ضد بريطانيا العظمى ، وايطاليا لانها تفكر فى مصالحها في طرابلس الغرب . وهكذا لم تجد نظرية المانيا الخاصة بالمساواة فى الحقوق بين الدول الا تحبيذا فارغا ففازت رغبات الفريق المعارض . وصحيح انه قد اعترف من حيث الشكل باستقلال سلطان مراكش وبمبدأ الباب المفتوح فى المسائل الاقتصادية ، لكن مهمة خفارة الموانىء المراكشية بواسطة الجندرمة انتقلت الى فرنسا وأسبانيا ، كما حصلت الجمهورية من الوجهة المالية على تسهلات مهمة . أما مصرف شئون وزارة الخارجية الالمانية الهر فون هولشتين الذى لابد ان يكون قد رأى أثناء المفاوضات كيف ان المانيا قد وقفت في مركز حرج فقد ارتأى ، وقد امضته هذه الحقيقة المحزنة ان تحبط

المانيا المؤتمر وهو الذي كانت سياسته سبباً الى حد كبير فى وصول المانيا الى ما وصلت اليه . فلما رفض رأيه هذا طلب الاستقالة فأجيب الى طلبه في ٧ ابريل سنة ١٩٠٦ على غير ما كان ينتظر . وخرج من عمله الذي لبث فيه هذه السنين الطوال . ثم مات عقب ذلك ببضع سنوات ممتعضاً أشد الامتعاض وحيداً وحدة كادت تكون تامة . وكان خروجه لسوء الحظ في وقت تعذر فيه اصلاح الاخطاء المشئومة التي ارتكبها ، لان القوى الموجهة الى المانيا كانت قد وجدت الفرصة سانحة للعمل في كل مكان ، وللانضمام فى هذا العمل بعضها الي بعض .

ولقد حدث عقب مؤتمر الجزيرة بقليل ان وقع حادث جديد حاسم إذ أسند نيقولا الثاني في مايو سنة ١٩٠٦ الى اسكندر بتروفتش ايزفولسكي منصب وزير الخارجية الروسية . وكان هذا السياسى الروسى من قبل من انصار فكرة المضي مع دول الغرب فكان معارضاً في مغامرة شرق آسيا ، فلما ظهر الآن من مجرى الاحوال انه كان على حق أصبح يرى انه الرجل الذى يجب أن يتولى ادارة سياسة بلاده الخارجية في المستقبل . وقد أظهرنا بنفسه على رأيه كله إذ اقص علينا في مذكراته كيف اجتمع هو وثلاثة من السياسيين الروسيين هم سفراء الروسيا في لندن وباريس وروما قبل أن يعين في منصبه نهائياً بزمن قصير ، وكان إذ ذاك ينتظر مطمئناً أن يسند اليه هذا المنصب ، وبحث معهم في الخطة التي تتبع . وقد كان الاساس الذى بنى عليه آماله وأعماله هو أن الروسيا «متحالفة منذ ١٥ سنة مع فرنسا بمحالفة رسمية» . أما الواقعة الثانية التي كان لها أثر في تقرير خطته فقد استبانها كما يقول فى مذكراته فى الصداقة الجديدة التي توثقت عراها بين انجلترة والجمهورية الفرنسية . فاذا أرادت الروسيا — على حد استنتاجه — أن تستفيد من هذه الصداقة فوائد دائمة كاملة « وجب عليها كما هو واضح أن تتقرب حتى الي انكلترا » . والسير على هذه

السياسة لا يقتضى الروسيا أن تقوي مركزها كحليفة لفرنسا فقط بل أن تكسب أيضاً تلك المحالفة الثنائية (بين انكلترا وفرنسا) قاعدة جديدة ثابتة» والذى أعان ايزفولسكى أيضاً على تقرير التقرب الى بريطانيا العظمى انه منذ هزيمة الروسيا في حربها مع اليابان ومثل هذا المسعى ظاهر فى لندن. وقد كان مسلك الحكومة الانجليزية قائما بحق على افتراض أن بطرسبورغ قد نضجت لفكرة التفاهم مع انجلترا على نقط الخلاف العديدة القائمة بينهما فى آسيا . وكان الانكليز قبل صلح بورتسموث قد جددوا في ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٥ محالفتهم القديمة مع اليابان عشر سنوات وضمنوا لانفسهم فى تلك الفرصة اعتبار منطقة الحدود الهندية منطقة نفوذ ، وهى المنطقة التى طالما اصطدمت بريطانيا العظمى فيها بالروسيا. ثم أعقب ذلك ان حملوا فرنسا على عقد معاهدة مع اليابان . وكل هذا قد دعا الدولة السلافية العظمى الى العدول عن خطط التوسع فى الشرق الاقصى ، تلك الخطط التى كانت تفخر بها . ولما كانت لندن في الوقت نفسه قد تركت الروسيا ترى انها مستعدة للتفاهم بما كانت قد قامت به من مظاهرات مختلفة بارزة للعيان كاستقبال أعضاء الدوما استقبالا حافلا وما أشبه ، فقد ظهر لايزفولسكي ان الطريق التى أتينا على وصفه الآن هي التى تتطلب الساعة السير فيها .

ولقد كان الاتفاق مع انجلتره ممكنا للروسيا طبعاً من طريق واحدة هي أن تسوى الروسيا أيضا نزاعها القديم مع اليابان حليفة الامبراطورية البريطانية بحيث لا يبقى هنالك مجال لخلاف ما . ومن ثم عقد وزير خارجية الروسيا فى ٣٠ يوليه ١٩٠٧ معاهدة مع تلك الدولة قضت على كل الاسباب التى كان يمكن ان تدعو الى الاحتكاك وحددت مناطق نفوذ الدولتين فى الصين . وهكذا أصبح الطريق ممهداً للاتفاق مع بريطانيا العظمى نفسها . وقد

تم هذا الاتفاق في ٣١ أغسطس ١٩٠٧ بما تراضى به الانجليز والروس فى شئون التيبت وبلاد الافغان وايران وكان مرمى هذا التراضى القضاء على مابين الفريقين في هذه البلاد من خصومة . وقد كتب متولى أعمال السفارة الالمانيـة في بطر سبورغ إذ ذاك عن فحوى هذه الاتفاقات في ٢٥ سبتمبر يقول : « تنص المعاهدة المعقودة عن التيبت على اعتراف الدولتين بسيادة الصين العليا وعدولهما عن التدخل فى الشئون الداخلية . . . . ثم هما تتعهدان بأن لا ترسلا في خلال ثلاث السنوات المقبلة بعثات علمية الى التيبت . أما الاتفاق فيما يتعلق ببلاد الافغان فأهم شأناً من هذا فقـد عرفت انجلتره أن تضمن لنفسها في هذا الاتفاق نصيب الاسد فلم يعد للروسيا فى تلك البلاد حقوق تطالب بها فيما عدا حق المساواة في التجارة . على أن الروسيا بلغت فى إيران أكثر مما بلغته فى افغانستان فان شمال فارس الخاضع للنفوذ الروسى لم يحده خط مستقيم بل قد حنى هذا الخط في قوس كبير نحو الجنوب حتى أصبح مشتملا على جزء كبير من وسط فارس فباتت منطقة النفوذ البريطانى ممتـدة من بلوخستان الى . . . . الخليج الفارسى . وقد ذكرت المعاهدة شيئاً عن طبيعة المثلث القـائم بين منطقتى النفوذ » وهو مثلث كان مقرراً له على كل حال ان يظل منطقة حياد .

هذه هي الاتفاقات التى مهدت الطريق من بطر سبورغ الى لندن وأزالت العقبات التى كانت تعترض سبيل الاتفاق بين بريطانيا العظمى والروسيا ، ولم يكن سفر قائد الجيش البريطاني العام الجنرال فرنش الى بطرسبورغ عقب التوقيع على الاتفـاق ليزور على قول صحيفة بورصن الروسـية « بعض الوزراء والذوات ويتعرف الى الجيش الروسى » نقول لم يكن هـذا السفر بالتأ كيـد مجرد أمر ساقت اليـه الصدفة فأنه يدل فى ذاته على أن التقرب السياسي كان لا بد أن يتبعه تفاهم عسكرى وثيق .

وقد اتسع نطاق هذا الاتفاق عقب ذلك بقليل اتساعا كبيراً من جراء مايسمى بمقابلة ريفال التى وقعت فى ٩ يونيه ١٩٠٨ فقد وصل ملك انجلترة اليها مصحوبا بطائفة من كبار الانجليز فى جملتهم الجنرال فرنش أيضاً وأمير البحر اللوردفيشر واجتمع هناك بالقيصر ومستشاريه . ولا يزال ما دار بين الفريقين في طي الكتمان لكنه فى وسعنا على كل حال أن نستخلص من بضع دلالات أن البحث دار في هذا الاجتماع على مسائل غاية في الاهمية . فأن كتابا لايزفولسكى الى السفير الروسى في لندن يدل على ان الوزير الانجليزي هاردنج كان يتوقع أن تتوتر العلاقات بين بريطانيا العظمى والمانيا توتراً شديداً جداً « بعد سبع أو ثمانى سنوات » ويرى أن تقوم الروسيا بدور الحكم . وقد ذكر اللورد فيشر في مذكراته فوق ذلك أنه نصح للروسيين أن يجعلوا حدودهم الغربية المتاخمة لالمانيا قوية على قدر الامكان » هذا الى أن صحيفة النيشن الانجليزية كانت تفترض الوصول في هذا الاجتماع الى اتفاقات عسكرية ثابتة .

بعد ذلك كله يتبين : ان الوفاق الانكليزى الفرنسى المعقودفى سنة ١٩٠٤ كان قد اتسع نطاقه بانضمام الروسيا اليه . فتبدلت الحال فى أوروبا تبدلا أساسياً تبعاً له ، ونما من الفريقين اللذين انقسمت اليهما أوروبا فى سنة ١٨٩٢ ذلك الفريق المخاصم لدول الوسط نمواً هائلا . واذا كان قد وسم الروسيا وفرنسا بمناسبة تجديد محالفتيهما في سنة ١٨٩٩ أن تتكلما بحق عن المحافظة على « التوزان » الاوروبى لان كتلتهما كانت معادلة للكتلة المكونة من المانيا والنمسا والمجر وايطاليا فى الحجم والقوة ، فان ذلك التوازن زال وحل محله رجحان الوفاق الثلاثي على المحالفة الثلاثية . ويجب هنا أن لا نغفل من حسابنا أن ايطاليا كانت منتمية الى المحالفة الثلاثية في الظاهر فقط .

وقد أعلن الكونت مونتس السفير الالماني في روما في ١٦ يونيه سنة ١٩٠٦ في مذكرة له « ان المحالفة الالمانية الايطالية محالفة عقيمة إذ لا ينتظر أن تقدم ايطاليا في حالة وقوع الحرب مساعدة فعالة. أما مايمكن أن تقدمه أيطاليا من مساعدة ديبلوماسية فقد دلت عليه حادثة مراكش » وإذن فقد كان التحول تاماً وباتت الامبراطورية الالمانية ومملكة النمسا وحدهما بلا نصير